

السَّيِّدُ وَالْمَلِكَةُ

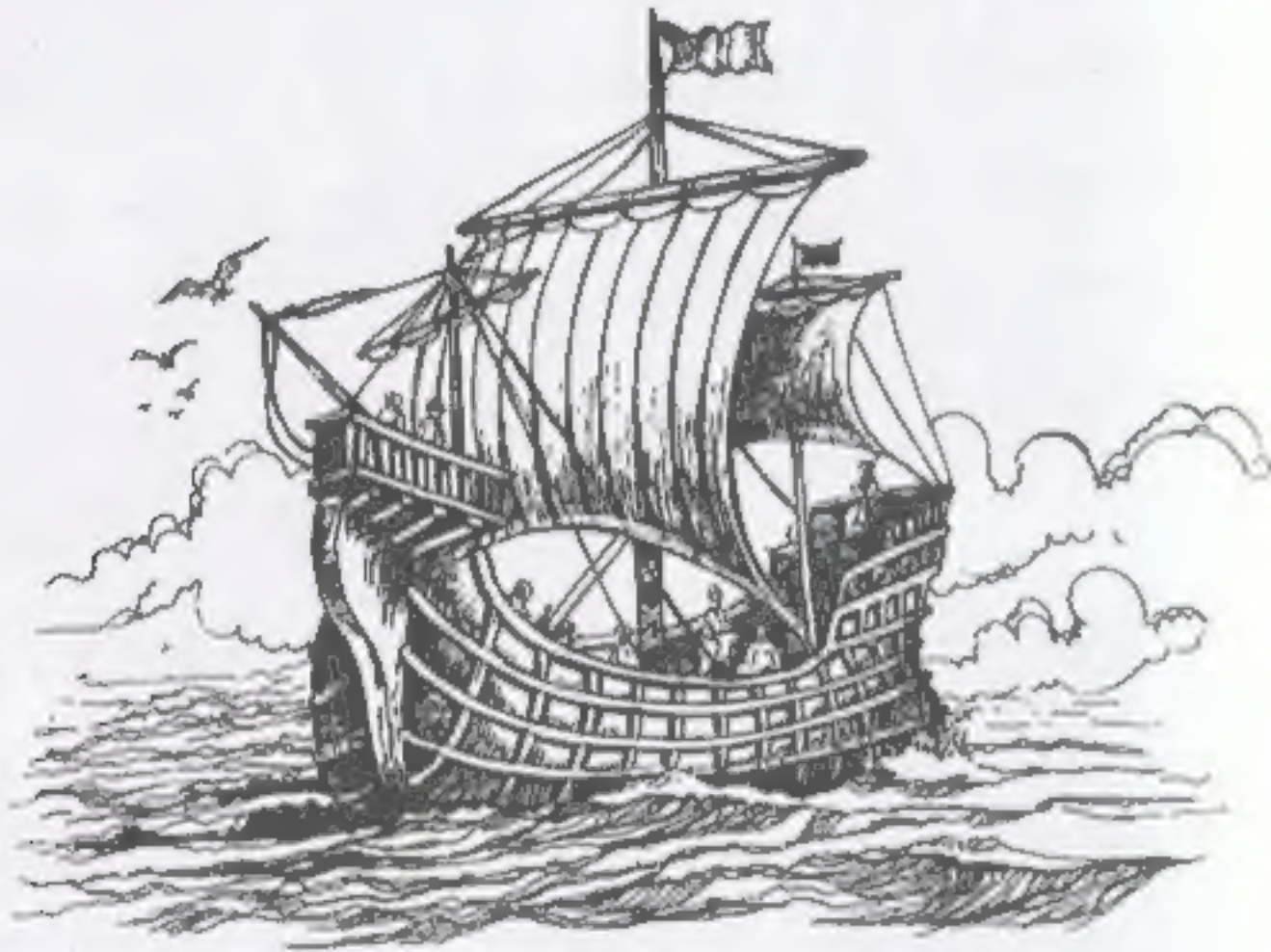


المغامرات المشرقة



ARABCOMICS.NET

مغامرات السندباد البحري



إعداد: حامد علي عطاري
رسم: دوغلاس پوست
غلاف: حسن عبد الستار

مكتبة لبنات
بيروت

© الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان

١٠ شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي - الجيزة
جميع الحقوق محفوظة : لا يجوز نشر أى جزء من هذا الكتاب ، أو تخزينه
أو تسجيله بأية وسيلة ، أو تصويره دون موافقة خطية من الناشر .

الطبعة الثانية

رقم الإيداع : ٢٢٩٤ / ٨٨

الترقيم الدولى : ٩-٥٢-٩٤٤٥-٩٧٧ ISBN

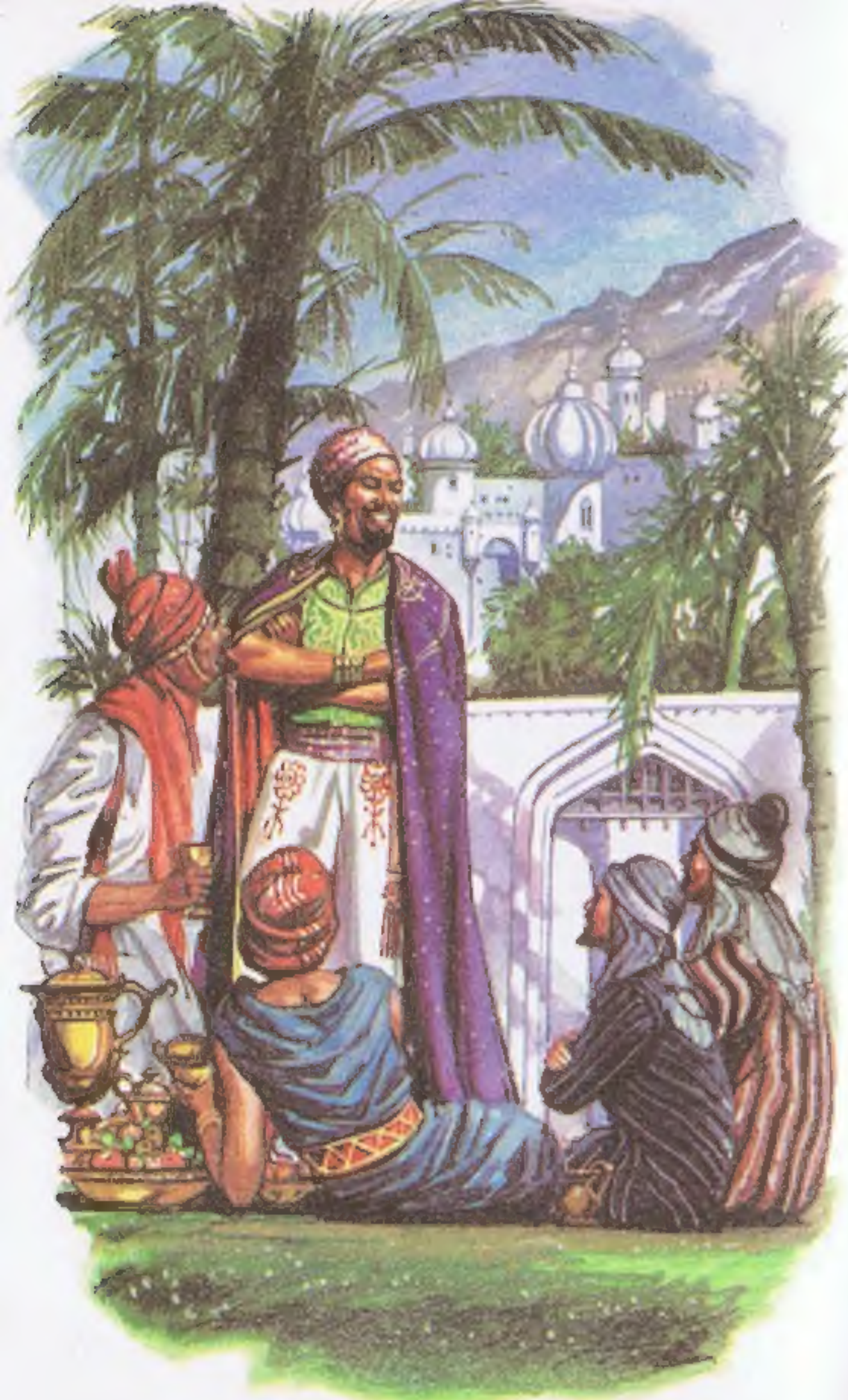
طبع بمطابع دار المعارف - القاهرة

الرَّحْلَةُ الْأُولَى

عاش السُّنْدُهَاذُ الْبَحْرِيُّ بِمَدِينَةِ بَغْدَادَ ، فِي عَهْدِ الْخَلِيفَةِ هَارُونَ الرَّشِيدِ .
وَكَانَ وَاسِعَ الثَّرَاءِ ، يُقِيمُ فِي بَيْتٍ فَخْمٍ فِي أَرْقِ حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَاصِمَةِ .
وَكَانَتْ تُحِيطُ بِبَيْتِهِ حَدِيقَةٌ رَخْبَةٌ غَنَاءُ ، أَشْجَارُهَا بِاسِقَةٌ ، وَرِيَّاحِيْنُهَا فَائِحَةٌ .
وَكَثِيرًا مَا كَانَ يَجْلِسُ هُوَ وَأَصْدِقَاؤُهُ فِي ظِلَالِ أَشْجَارِ تِلْكَ الْحَدِيقَةِ كُلَّمَا
اشْتَدَّتْ حَرَارَةُ الْجَوِّ . وَهَذَا نَحْنُ نُورِدُ قِصَّةَ الْمَغَامِرَاتِ بِلسَانِ صَاحِبِهَا ،
يُروِيهَا لِأَصْدِقَائِهِ . لِنَسْتَمِعَ إِلَيْهِ :

« إِنِّي ثَرِيٌّ الْآنَ ، وَلَكِنِّي لَمْ أَكُنْ كَذَلِكَ دَائِمًا ؛ بَلْ جَاءَ عَلَيَّ وَقْتُ كُنْتُ
فِيهِ فَقِيرًا جَدًّا ، لَا أَغْرِفُ لِلسَّعَادَةِ مَعْنَى . وَفِي رِحْلَتِي الْأُولَى صَادَفْتُ
الْأَهْوَالَ ، وَاحْتَمَلْتُ الْمَشَقَّاتِ ، وَانْتَابَتْنِي الْمَخَافُفُ . وَإِلَيْكُمْ قِصَّةُ الرَّحْلَةِ
الْأُولَى . »

كُنْتُ آنَذَاقَ شَابًّا طَائِشًا ، شَأْنُ أُمْتَالِي مِنَ الشُّبَابِ الَّذِينَ يُتَدَدُونَ أَمَالًا
وَالْوَقْتُ هَبَاءً . وَلَمَّا سَاءَتْ بِي الْأَحْوَالُ ، أَقْنَعْتُ نَفْسِي بِضَرُورَةِ الْعَمَلِ
لِلْحُصُولِ عَلَى أَمَالٍ . وَلِتَحْقِيقِ ذَلِكَ بَعَثْتُ بَيْتِي وَمَا أَمْلِكُ لِقَاءَ ثَلَاثَةِ آلَافِ
دِرْهَمٍ ، اشْتَرَيْتُ بِهَا أَنْفُسَ الْمَلْبُوسَاتِ وَأَعْلَى الْبِضَائِعِ ، وَحَمَلْتُهَا إِلَى
الْبَصْرَةِ . وَفِي الْبَصْرَةِ التَّقِيْتُ رُبَّانَ مَفِينَةٍ ، وَتَبَادَلْتُ وَإِيَّاهُ الْحَدِيثَ .



وَمِمَّا قَالَهُ لِي : « سَتَقْلَعُ السَّفِينَةُ الْأُسْبُوعَ الْقَادِمَ ، وَعَلَيْهَا سِتَّةٌ مِنَ التُّجَّارِ وَبَضَائِعُهُمْ . وَنَحْنُ فِي طَرِيقِنَا إِلَى بِلَادِ الشَّرْقِ الْأَقْصَى وَجُزُرِهِ ، حَيْثُ يَسِعُ التُّجَّارُ بَضَاعَتَهُمْ ، وَيَتَتَاعُونَ الْجَوَاهِرَ وَنِفَائِسَ الشَّرْقِ لِيَبِيعُوهَا فِي بِلَادِهِمْ بَعْدَ عَوْدَتِهِمْ مِنْ رِحْلَتِهِمْ . »

لَمَّا انْتَهَى الرَّبَّانُ مِنْ كَلَامِهِ ، سَأَلَتْهُ : « هَلْ يُمَكِّنُ أَنْ نَأْخُذَ عَلَى سَفِينَتِكَ تَاجِرًا آخَرَ ؟ لَيْسَ لَدَيَّ إِلَّا بَضْعَةٌ صِنَادِيقٍ ، وَسَادَقُكَ لَكَ نَصِيكَ مِمَّا سَأَلَالَهُ مِنْ أَرْبَاحٍ . » فَوَافَقَ الرَّبَّانُ عَلَى ذَلِكَ .

فِي الْأُسْبُوعِ التَّالِي ، أُبْحَرَتِ السَّفِينَةُ فِي شَطْطِ الْعَرَبِ ، ثُمَّ عَبَرَتْ الْخَلِيجَ الْعَرَبِيَّ إِلَى الْمَحِيطِ الْهِنْدِيِّ . وَطَالَ سَيْرُنَا فِي الْبَحْرِ أَيَّامًا بَلِيَالِيهَا . وَكُنَّا نَتَوَقَّفُ فِي بَعْضِ الْمَوَانِي وَالْجُزُرِ فَتَقَابِضُ عَلَى بَضَائِعِنَا . وَذَاتَ يَوْمٍ ، رَسَبَتِ السَّفِينَةُ عَلَى شَاطِئِ جَزِيرَةٍ غَنَاءٍ . وَكَانَ الرَّبَّانُ يَأْمُلُ أَنْ يَحْصُلَ عَلَى الْمَاءِ الْعَذْبِ مِنْهَا ، وَلِهَذَا أُرْسِي سَفِينَتُهُ عَلَى مَقَرَّةٍ مِنَ الْيَابِسَةِ . وَقَصَدَ الْكَثِيرُونَ مِنَّا الشَّاطِئَ بَحْثًا عَنِ الْمَاءِ الْعَذْبِ ، وَرَغْبَةً فِي التَّجَوُّلِ فِي أُنْحَاءِ الْجَزِيرَةِ . وَقَدْ حَمَلَ الْبَحَّارَةُ قُدُورَ الْمَاءِ الْكَبِيرَةِ لِمَلْئِهَا ، عَلَى حِينِ اخْتِذَتْ أُجُولُ فِي الْجَزِيرَةِ وَاتَّمَتَّ بِمَنَاطِرِهَا . وَقَدْ حَلَا لِبَعْضِ الْبَحَّارَةِ وَالتُّجَّارِ أَنْ يَجْمَعُوا الْحَطَبَ وَيُشْعِلُوا نَارًا .

الْجَزِيرَةُ تَتَحَرَّكُ

حَدَّثَ بَعْدَ ذَلِكَ شَيْئَانِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ ، أَوَّلُهُمَا : تَحَرُّكُ الْجَزِيرَةِ مِنْ

تَحْتِنَا ، وَثَانِيَهُمَا : صُرَاخُ الرَّبَّانِ يَدْعُونَا لِلنُّجَاةِ بِأَنْفُسِنَا وَالْعَوْدَةِ إِلَى السَّفِينَةِ . صَاحَ : « إِنَّ الْأَرْضَ الَّتِي تَقْفُونَ عَلَيْهَا لَيْسَتْ جَزِيرَةً ، وَإِنَّمَا هِيَ حُوتٌ عَظِيمٌ يَنَامُ فَوْقَ سَطْحِ الْمَاءِ مُنْذُ سَنَوَاتٍ ، فَتَمَتْ عَلَيْهِ النَّبَاتَاتُ ، لَكِنَّ نَارَكُمْ أَيْقَظَتْهُ مِنْ نَوْمِهِ . الْهَرَبُ ! الْهَرَبُ ! قَبْلَ أَنْ يَغُوصَ بِكُمْ الْحُوتُ فِي أَعْمَاقِ الْبَحْرِ . »



فَلَمَّا سَمِعْنَا مَا قَالَهُ الرَّبَّانُ ، أَسْرَعْنَا طَلَبًا لِلنُّجَاةِ ، وَلَكِنِّي كُنْتُ عَلَى مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ ، وَلَمْ أَسْتَطِعْ اللَّحَاقَ بِالسَّفِينَةِ قَبْلَ إِفْلَاعِهَا . وَمَا هِيَ إِلَّا لَحْظَاتٌ ، حَتَّى اخْتَدَتِ الْجَزِيرَةُ تَغُوصُ فِي الْأَعْمَاقِ . ثُمَّ هَبَّتْ رِيَّاحٌ عَاتِيَةٌ عَصَفَتْ

بِالسَّفِينَةِ بَعِيدًا ، وَوَجَدْتُ نَفْسِي فِي صِرَاحٍ مَعَ الْأَمْوَاجِ ، أَصْعَدُ إِلَى سَطْحِ
الْمَاءِ ، وَأَغْوَصُ ثَانِيَةً . وَاحْتَفَتِ السَّفِينَةُ عَنْ نَظَرِي ، وَانْقَطَعَ بِذَلِكَ آخِرُ
خَيْطٍ مِنَ الْأَمَلِ ؛ بَلْ تَوَقَّعْتُ الْمَوْتَ فِي ذَلِكَ الْبَحْرِ الْمُتَلَاطِمِ الْأَمْوَاجِ .

قَدَرُ الْمَاءِ

لَكِنَّ الْعِنَايَةَ الرَّبَّانِيَّةَ الَّتِي لَا تُغْفَلُ وَلَا تَنَامُ ، سَاقَتْ إِلَيَّ قَدْرًا فَارِغَةً ،
فَاحْتَضَنْتُهَا بِذِرَاعِي ، وَنَجَوْتُ مِنَ الْعَرَقِ . وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْيَسِيرِ عَلَيَّ أَنْ أَبْقَى
مُحْتَضِنًا الْقَدْرَ ، عَلَى حِينِ ثَلَعُ بِبِي الْأَمْوَاجُ كَيْفَ شَاءَتْ ، فَتَقْدِفُ بِي هُنَا ،
ثُمَّ تَعُودُ فَتَقْدِفُ بِي هُنَاكَ ، وَأَنَا لَا حَوْلَ لِي وَلَا قُوَّةَ . وَبَقِيتُ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ
الَّذِي بَطُولُهُ وَنَهَارُ الْيَوْمِ الْكَثَالِي وَلَيْلَتُهُ . وَمَا إِنْ طَلَعَ الصَّبَاحُ ، حَتَّى تَطْلُعْتُ
حَوْلِي وَقُلْتُ : « الْوَدَاعُ يَأْذُنِي ! إِنَّهُ آخِرُ يَوْمٍ فِي حَيَاتِي . فَأَنَا مَرِيضٌ تَصَلَّبْتُ
أَصَابِعِي مِنْ شِدَّةِ الْبَرْدِ ، وَتَكَادُ ذِرَاعِي أَنْ تَتَصَلَّبَا أَيْضًا ، وَلَنْ يَطُولَ تَشَبُّهِي
بِالْقَدْرِ ، وَبَعْدَهَا سَأَهْبِطُ إِلَى قَاعِ الْبَحْرِ إِلَى الْأَبَدِ . »

الْيَابِسَةُ

وَسَطَ هَذَا الْيَاسِ لَاحَ الْفَرْجِ ؛ إِذْ رَأَيْتُ الْيَابِسَةَ . وَهَبَّتِ الرِّيحُ وَدَفَعَتْنِي
وَقَدَرُ الْمَاءِ إِلَى الشَّاطِئِ تَحْتَ شَجَرَةٍ كَبِيرَةٍ . أَمَّا مَاذَا حَدَثَ بَعْدَ ذَلِكَ ، فَلَا
أَذْرِي . وَكُلُّ مَا أَعْرِفُهُ أَنِّي أَصْبَحْتُ عَاجِزًا عَنِ الْحَرَكَةِ لِمُدَّةِ يَوْمَيْنِ . كُنْتُ
خَائِرَ الْقَوَى مِنَ الْجُوعِ وَالْعَطَشِ ، فَلَمْ أَسْتَطِعْ التَّهَوُّضَ عَلَى قَدَمِي . نَظَرْتُ
إِلَى قَدَمِي فَلَاخِظْتُ آثَارَ نَهَشِ السَّمَكِ فِي لَحْمِي ظَاهِرَةً لِلْعَيْنِ ، فَقُلْتُ

لِنَفْسِي : « لَا تَبْتَئِسْ يَا سِنْدِبَادُ ! سَتُشْفَى قَدَمَاكَ . إِنْ غَسَلْتَهُمَا بِالْمَاءِ النُّظِيفِ
الْعَذِيبِ ضَرُورِي ، لِذَا يَجِبُ الْبَحْثُ عَنْهُ . »

أَخَذْتُ أَزْحَفُ عَلَى الْأَرْضِ مُسْتَعِينًا بِذِرَاعِي حَتَّى بَلَغْتُ شَجَرَةً فَالِكِهَةِ عَلَى
ضِفَةِ نَهِيرٍ . وَبَقِيتُ تَحْتَهَا أَيَّامًا أَقَاتَتْ ثِمَارَهَا وَأَشْرَبُ مِنْ مِيَاهِ النَّهِيرِ ، إِلَى أَنْ
تَحَسَّنَتْ حَالُ قَدَمِي ، وَاسْتَعَدْتُ شَيْئًا مِنْ قَوَايِ . وَأَحْسَسْتُ بِأَنَّهُ قَدْ آنَ
الْأَوَانُ لِمُعَادَرَةِ الْمَكَانِ ، فَتَزَوَّدْتُ بِبَعْضِ الْفَاكِهَةِ دُونَ الْمَاءِ لِعَدَمِ قُدْرَتِي عَلَى
حَمْلِهِ ، عَلَى أَمَلِ الْعُثُورِ عَلَى أَنْهَارٍ أُخْرَى فِي طَرِيقِي . وَلَكِنْ خَابَتْ ظُنُونِي
وَأَنْهَارَتْ آمَالِي ، إِذْ لَمْ أَصَادِفْ فِي طَرِيقِي مَاءً لِلشُّرْبِ أَوْ أَشْجَارَ فَالِكِهَةِ .

سِرْتُ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ دُونَ أَنْ تَلْمَحَ عَيْنَايَ مَا يَدُلُّ عَلَى وُجُودِ بَشَرٍ
إِطْلَاقًا . وَبَعْدَ أَنْ قَضَيْتُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ أَمْشِي عَلَى غَيْرِ هُدًى ، وَأَعِيشُ عَلَى بَقِيَّةٍ مِنَ
الْأَمَلِ ، بَدَأَ الْخَوْفُ يَدِبُ فِي أَوْصَالِي ، وَيَمْلِكُ عَلَيَّ مَشَاعِرِي ، فَرَحْتُ
أُخَاطِبُ نَفْسِي : « يَاطَرِي ، هَلْ أَنَا الْوَحِيدُ فِي هَذِهِ الْجَزِيرَةِ ؟ أَمَّا مِنْ حَيَوَانٍ أَوْ
طَيْرٍ أَوْ إِنْسَانٍ هُنَا ؟ مَا الَّذِي أَرَاهُ هُنَاكَ ؟ »

الْحِصَانُ

أَخَذْتُ أَنْعِمُ الْنَظَرَ فِيمَا لَاحَ لِي مِنْ بَعِيدٍ ، وَإِذَا بِهِ حِصَانٌ . رُدَّتْ رُوحِي
إِلَيَّ ، وَعَاوَدَنِي الْأَمَلُ فِي الْحَيَاةِ ، فَأَسْرَعْتُ الْخُطَى صَوْبَ الْحِصَانِ .
وَكَانَ ، وَالْحَقُّ يُقَالُ ، فِي غَايَةِ الْجَمَالِ وَالرَّشَاقَةِ . فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : « إِنْ
حِصَانًا كَهَذَا لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لِمَلِكٍ أَوْ لِرَجُلٍ ثَرِيٍّ . »

وَمَا إِنْ اقْتَرَبْتُ مِنْهُ حَتَّى خَرَجَ مِنْ كَهْفٍ لَيْسَ بَعِيدَ رَجُلٍ أَخَذَ
يَجْرِي بِسُرْعَةٍ ، مُشْهَرًا سَيْفَهُ ، ثُمَّ صَرَخَ فِي قَائِلًا : « كُلُّ مَنْ يَمَسُّ حِصَانِ
الْمَلِكِ الْمَوْتُ مُصِيرُهُ . »

قُلْتُ لَهُ مُتَوَسِّلًا : « لَا تَقْتُلْنِي أَيُّهَا الرَّجُلُ ! مَا كُنْتُ أَقْصِدُ إِلَّا رُؤْيَا هَذَا
الْحِصَانِ الْجَمِيلِ ، فَهَلْ هُوَ لَكَ ؟ »

فَرَدَّ عَلَيَّ الرَّجُلُ مُتَسَائِلًا : « قُلْ لِي مَنْ أَنْتَ ؟ وَمَا الَّذِي جَاءَ بِكَ إِلَى هَذَا
الْمَكَانِ ؟ »

أَجَبْتُهُ : « لَقَدْ نَجَوْتُ مِنَ الْغَرَقِ بِوَسْاطَةِ قَذِرِ مَاءٍ . » وَرَوَيْتُ لَهُ حِكَايَتِي
مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا .

وَمَا إِنْ سَمِعَ حِكَايَتِي الْمُؤَلِّمَةُ ، حَتَّى أَخَذَتْنِي مِنْ يَدِي ، وَسَارَتْنِي إِلَى
الْكَهْفِ ، وَقَدَّمَتْ لِي الطَّعَامَ وَالْمَاءَ . وَأَخَذَ يُسْرِي عَنِّي هُمُومِي قَائِلًا : « حَقًّا
إِنَّ الْإِغْنَاءَ الْإِلَهِيَّةَ شَمِلَتْكَ ، فَكَتَبَتْ لَكَ الْحَيَاةَ . إِنِّي وَزَمَلَانِي مِنْ خُدَّامِ الْمَلِكِ
نَأَتْنِي فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً إِلَى هَذَا الْمَكَانِ مِنَ الْجَزِيرَةِ ، وَتَقْضِي فِيهِ أُسْبُوعًا وَمَعَنَا
أَحْسَنُ جِيَادِ الْمَلِكِ . فَهَوَاءُ الْجَزِيرَةِ عَلِيلٌ يُنْعَشُ الْجِيَادُ وَيُكْسِبُهَا الصَّحَّةُ
وَالْعَافِيَةُ . وَلَكِنَّ الْجَزِيرَةَ تَقْتَرُّ إِلَى الطَّعَامِ وَالْمَاءِ لِبُعْدِهَا عَنِ الْأَمَاكِينِ الْمَأْهُولَةِ
بِالسُّكَّانِ ، وَلِتَعْدُرَ الْوُصُولُ إِلَيْهَا دُونَ دَلِيلٍ . وَلِهَذَا سَتَنْصَطِجُكَ مَعَنَا غَدًا
فِي طَرِيقِ عَوْدَتِنَا . »

الْمَلِكُ الْمَهْرَجَانُ

لَمْ يَمُرَّ مِنَ الْوَقْتِ إِلَّا قَلِيلُهُ ، حَتَّى حَضَرَ زُمَلَاؤُهُ فَوْقَ جِيَادِ الْمَلِكِ
الرَّشِيقَةِ ، وَرَافَقَتْهُمْ فِي عَوْدَتِهِمْ . وَفِي الطَّرِيقِ حَدَّثُونِي كَثِيرًا عَنْ مَلِكِهِمْ ،
وَمِمَّا قَالُوهُ : « إِنَّ الْمَلِكَ الْمَهْرَجَانَ أَكْثَمُ مَلِكٍ فِي الْبِلَادِ ، وَالشَّعْبُ يُؤَلِّيهِ
صَادِقَ وَلَايَةٍ وَعَظِيمَ حُبِّهِ ، لِمَا يَعْرِفُ عَنْهُ مِنْ كَرَمِ الْخُلُقِ ، وَطِيبِ السَّرِيرَةِ ،
وَإِعْطَاءِ كُلِّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ ، وَلِأَنَّهُ لَا يَخَافُ فِي الْحَقِّ لَوْمَةَ لَائِمٍ . وَيَقْصِدُ
مَدِينَتَنَا الْعَظِيمَةَ تُجَارٍ مِنْ مَخْتَلِفِ بَقَاعِ الْأَرْضِ ، فَيَلْقَوْنَ كُلُّ رِعَايَةٍ وَحُسْنِ
مُعَامَلَةٍ . »

وَبُنْمَجَرَّدِ وَصُولِنَا إِلَى الْمَدِينَةِ ، أَسْرَعُوا إِلَى الْمَلِكِ ، وَأَتَبَّأُوهُ بِشَأْنِي . فَمَا
كَانَ مِنْهُ إِلَّا أَنْ اسْتَدْعَانِي ، وَاسْتَمَعَ إِلَيَّ تَفَاصِيلَ قِصَّتِي بِكُلِّ اِهْتِمَامٍ . ثُمَّ عَقَبَ
عَلَى كَلَامِي بِقَوْلِهِ : « لَقَدْ كَانَ الْحِظُّ خَلِيفَكَ . »

وَأَمَرَ خَدَمَهُ بِتَوْفِيرِ مَا أحتاجُ إِلَيْهِ بَعْدَ أَنْ شَمِلَنِي بِرِعَايَتِهِ . وَكَانَ بَيْنَ الْحَيْنِ
وَالْآخِرِ يَسْتَدْعِينِي إِلَى دِيْوَانِهِ ، وَكُنْتُ أَجِيزُ الْحَدِيثَ بِعَدَدِ مِنَ اللَّغَاتِ ،
فَاسْتَعَانَ بِي الْمَلِكُ فِي الْإِهْتِمَامِ بِشُؤْنِ التُّجَّارِ وَالبَحَّارَةِ الَّذِينَ كَانُوا يَزُورُونَ
مَمْلَكَتَهُ ، ثُمَّ إِخْطَارِهِ بِمَا يَحْمِلُونَ مِنْ بَضَائِعٍ أَوْ بِمَا يَشْتَرُونَهُ مِنْ مَمْلَكَتِهِ .
وَقَدْ دَأَبْتُ عَلَى سُؤَالِ رَبَابَةِ السُّفُنِ عَنْ رِحَالَتِهِمْ ، وَعَمَّا إِذَا كَانُوا يَعْرِفُونَ
بَعْدَاز .

ذاتَ يَوْمٍ ، رَسَتْ فِي الْمِيناءِ سَفِينَةٌ كَبِيرَةٌ ، وَبَدَأَ التُّجَّارُ الْقَادِمُونَ عَلَيْهَا فِي انْزَالِ بَضَائِعِهِمْ ، وَأَخَذُوا يَبِيعُونَ وَيَشْتَرُونَ وَيُقَايِضُونَ . فَاقْتَرَبْتُ مِنَ الرُّبَّانِ وَسَأَلْتُهُ : « أَمَا مِنْ بَضَائِعٍ أُخْرَى فِي السَّفِينَةِ ؟ »

كَانَ جَوَابُهُ : « فِي السَّفِينَةِ بَضْعَةٌ صِنَادِيقُ لِتَاجِرٍ شَابٍ بَدَأَ رِحْلَتَهُ مَعَنَا ، وَلَكِنَّهُ مَاتَ غَرَقًا . وَسَأَقُومُ بِبَيْعِ بَضَاعَتِهِ وَتَسْلِيمِ ثَمَنِهَا إِلَى أَهْلِهِ فِي بَغْدَادِ الْعَظِيمَةِ .

تَفَرَّسْتُ فِي وَجْهِهِ ، فَعَرَفْتُهُ . وَسَأَلْتُهُ : « هَلْ لَكَ أَنْ تُذَكِّرَ لِي اسْمَهُ ؟ » أَجَابَنِي : « إِنَّ اسْمَهُ السَّنْدِبَادُ .

وَمَا إِنْ سَمِعْتُ اسْمِي حَتَّى كَادَ أَنْ يُغْشَى عَلَيَّ ، فَصَرَخْتُ بِأَعْلَى صَوْنِي : « أَيُّهَا الرُّبَّانُ ! أَنَا السَّنْدِبَادُ ، وَهَذِهِ بَضَاعَتِي ، وَإِنِّي لَا شُكْرَكَ عَلَى اخْتِفَاظِكَ بِهَا ! »

وَلَمْ يَسْجِ الرُّبَّانُ إِلَّا أَنْ يَسْتَكْبِرَ قَوْلِي وَيَصِيحَ : « كَيْفَ لِي أَنْ أَصَدِّقَكَ ؟ صَحِيحٌ أَنْ وَجْهَكَ يَنْمُ عَنْ الطَّيْبَةِ وَالصَّلَاحِ ، وَلَكِنَّكَ تَدْعِي أَنَّكَ السَّنْدِبَادُ لِتَسْتَوَلِيَ عَلَى الْبَضَائِعِ دُونَ وَجْهِ حَقٍّ . لَقَدْ رَأَيْتُ السَّنْدِبَادَ بِعَيْنِي وَالْمَاءُ يَتَلَعَّعُ ، كَمَا رَأَاهُ الْبَحَّارَةُ وَالتُّجَّارُ عَلَى ظَهْرِ السَّفِينَةِ ، عِنْدَمَا كَانَ الْمَوْتُ يَطْوِيهِ بَيْنَ أَمْوَاجِ الْبَحْرِ . كَفَاكَ ادِّعَاءٌ ، فَأَنْتَ لَسْتَ السَّنْدِبَادُ .

وَلَمَّا زَادَتْ حِدَّةُ الْمَوْقِفِ بَيْنَنَا ، قُلْتُ لَهُ : « أَيُّهَا الرُّبَّانُ ! أَرْجُو أَنْ

تَسْتَمِعَ إِلَيَّ ، وَتُنْصِتَ إِلَى حِكَايَتِي ، وَأَتْرُكَ لَكَ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرَ تَصْدِيقِي أَوْ تَكْذِيبِي . »

وَأَخَذْتُ أُحْكِي لَهُ حِكَايَتِي مُنْذُ أَنْ قَابَلْتُهُ فِي الْبَصْرَةِ ، وَذَكَرْتُهُ بِأَشْيَاءَ خَاصَّةٍ جَرَتْ بَيْنَنَا نَقُومٌ دَلِيلًا عَلَى صِدْقِ قَوْلِي . حِينَئِذِكَ افْتَتَحَ الرُّبَّانُ بِمَا قُلْتُ ، وَأَظْهَرَ التُّجَّارُ فَرَحَهُمْ بِنَجَاتِي وَهَنَؤُنِي بِالسَّلَامَةِ .

هَدِيَّةُ الْمَلِكِ

قَامَ الرُّبَّانُ بِتَسْلِيمِي بَضَائِعِي فَاخْتَرْتُ مِنْ بَيْنِهَا أَغْلَاهَا لِتَكُونَ هَدِيَّةً لِلْمَلِكِ ، وَحَمَلَهَا الْبَحَّارَةُ وَوَضَعُوهَا بَيْنَ يَدَيْهِ . وَمَا إِنْ رَأَاهَا حَتَّى قَالَ لِي : « مَا هَذَا الَّذِي أَرَاهُ ؟ لَقَدْ جِئْتَنَا خَالِي الْوِفَاضِ ، وَلَكِنِّي أَرَاكَ الْآنَ تُقَدِّمُ لِي هَدِيَّةً ثَمِينَةً ، فَكَيْفَ حَدَثَ هَذَا ؟ »

أَعَدْتُ عَلَى مَسَامِعِ الْمَلِكِ قِصَّةَ السَّفِينَةِ وَمَا جَرَى لِي . وَلَمْ يَسْجِ الْمَلِكُ إِلَّا أَنْ يُقَدِّمَ لِي هَدِيَّةً أَثْمَنَ مِنْ هَدِيَّتِي لَهُ .

الْعَوْدَةُ إِلَى بَغْدَادِ

عِنْدَمَا شَرَعَتْ السَّفِينَةُ تَأْخُذُ أَهْبَتَهَا لِلْإِبْحَارِ ، ذَهَبْتُ إِلَى الْمَلِكِ وَقُلْتُ لَهُ : « يُخَزِّنِي يَا مَوْلَايَ أَنْ أَغَادِرَ بِلَدَكَ الْجَمِيلَ ، وَأُحْرَمَ مِنْ رُؤْيَةِ مَلِكٍ عَظِيمٍ ، عَطَفَ عَلَيَّ ، وَشَمِلَنِي بِرِعَائَتِهِ ؛ فَأَنَا يَا مَوْلَايَ أَجِنُّ إِلَى مَدِينَتِي وَمَسْقِطِ رَأْسِي ، بَغْدَادَ الْعَظِيمَةِ . »

وَأَفَّقَ الْمَلِكُ عَلَى رَحِيلِي قَائِلًا : « لَقَدْ صَدَّقْتَ فِيمَا قُلْتَ ، وَالْوَاجِبُ

يَدْعُوكَ إِلَى الْعُودَةِ إِلَى بَلَدِكَ . لَقَدْ كُنْتَ بَيْنَنَا نَعَمَ الصَّدِيقُ الَّذِي نَعْتَزُّ
بِصَدَاقَتِهِ ، فَقَدْ قَدَّمْتَ إِلَى بَلَدِي أَجَلَ الْخِدْمَاتِ وَأَصْدَقَهَا . رَافَقْتُكَ
السَّلَامَةَ ، وَلَكَ شُكْرِي وَتَقْدِيرِي . »

ثُمَّ أَمَرَ خَدَمَهُ أَنْ يَحْمِلُوا إِلَيَّ الْهَدَايَا الثَّمِينَةَ مِنْ ذَهَبٍ وَجَوَاهِرٍ وَمَلَابِسٍ
فَاجِرَةٍ وَغَيْرِهَا مِمَّا لَا يُقَدَّرُ بِثَمَنِ . وَبَعْدَ رِحْلَةٍ طَوِيلَةٍ رَسَتْ بِنَا السَّفِينَةُ فِي
مِينَاءِ الْبَصْرَةِ ، وَمِنْهَا سَافَرْتُ بَرًّا إِلَى بَغْدَادَ . وَقَدْ فَرِحَ أَصْدِقَايَ بِعُودَتِي ،
وَاشْتَرَيْتُ لِنَفْسِي بَيْتًا فَخْمًا ، عَشْتُ فِيهِ عِدَّةَ سَنَوَاتٍ فِي جَوْ مِنْ السَّعَادَةِ
وَالرَّفَاهِيَةِ . وَغَدَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ سَأُحَدِّثُكُمْ عَنِ الرِّحْلَةِ الثَّانِيَةِ .

الرَّحْلَةُ الثَّانِيَةُ

عِنْدَمَا غَدْتُ مِنْ رِحْلَتِي الْأُولَى ، قَرَّرْتُ أَنْ أَقْضِيَ بَقِيَّةَ عُمْرِي فِي بَغْدَادَ .
فَقَدْ رَزَقَنِي اللَّهُ الْخَيْرَ الْوَفِيرَ ، وَكُلَّ أَسْبَابِ السَّعَادَةِ : فَالْبَيْتُ فَخْمٌ ،
وَالْأَصْدِقَاءُ كَثِيرُونَ ، وَامْتِطَلَبَاتُ حَيَاةِ الرَّفَاهِيَةِ مُتَوَفِّرَةٌ . وَلَكِنْ وَسَّوَسْتُ لِي
نَفْسِي أَنْ أَعَامِرَ ثَانِيَةً لِأَرَى مَا لَمْ أَرَهُ مِنْ قَبْلِ مِنْ بِلَادٍ وَجُزُرٍ وَغَيْرِهَا .
وَعَاوَدَنِي الْحَنِينُ إِلَى التَّجَارَةِ مِنْ بَيْعٍ وَشِرَاءٍ وَمُقَابَضَةٍ .

وَلَمَّا عَزَمْتُ عَلَى الْخُرُوجِ فِي تِجَارَةٍ ، مَلَأْتُ الصَّنَادِيقَ بِمَا خَفَّ حَمْلُهُ
وَوَغْلَا ثَمَنُهُ ، مِمَّا تَزَخَّرَ بِهِ أَسْوَاقُ بَغْدَادَ . وَحَمَلْتُهَا إِلَى الْبَصْرَةِ ؛ حَيْثُ رَكِبْتُ
سَفِينَةً تُحْمِلُ غَدَاً مِنَ التُّجَّارِ .

أَقْلَعْتُ بِنَا السَّفِينَةَ فِي رِحْلَةٍ جَمِيلَةٍ ، وَكُنَّا نَتَنَقَّلُ بِهَا مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ ، وَمِنْ
جَزِيرَةٍ إِلَى جَزِيرَةٍ ، بِحَيْثُ كَانَتْ وَجْهَةٌ سِيرِنَا الْجَنُوبَ وَالشَّرْقَ . وَبَعْدَ مُدَّةٍ
مِنَ الزَّمَنِ ، رَسَتْ السَّفِينَةُ عَلَى شَاطِئِ جَزِيرَةٍ غَنِيَّةٍ بِأَشْجَارِهَا الدَّائِمَةِ
الْخَضِرَةِ ، وَبِأَثْمَارِهَا الْيَانِعَةِ ، وَبِأَزْهَارِهَا الْفَوَّاحَةِ ، وَبِأَنْهَارِهَا ذَاتِ الْمِيَاهِ
الْعَذِيَةِ . وَلَكِنَّا لَمْ نَرِ بِهَا بَشَرًا .

نَزَلَ بَعْضُ الْبَحَّارَةِ لِيَمْلَأُوا الْأَوَانِي بِالْمِيَاهِ الْعَذِيَةِ ، عَلَى حِينِ رَافَقَتْ بَعْضَ
التُّجَّارِ فِي التَّجَوُّلِ فِي أَثْنَاءِ الْجَزِيرَةِ ، وَشَاهَدْنَا الْأَزْهَارَ الرَّائِعَةَ الْجَمَالَ . وَقَدْ

وَقَعْتُ غَيْنَايَ عَلَى زَهْرَةٍ كَبِيرَةٍ وَجَمِيلَةٍ ، فَاقْتَرَبْتُ مِنْهَا وَشَمَمْتُهَا ، فَرَحْتُ
فِي سُبَاتٍ عَمِيقٍ .

وَلَمَّا أَفْقْتُ مِنْ نَوْمِي ، وَجَدْتُ نَفْسِي وَحِيدًا ، وَلَا أَثَرَ لِلْبَحَّارَةِ أَوْ التُّجَّارِ
عَلَى الْجَزِيرَةِ . وَلَمْ أَشْعُرْ إِلَّا وَقَدْ أَخَذْتُ أَصْرُخُ : « يَا لِلْحَمَاقَةِ الَّتِي
ارْتَكَبْتُهَا ! لِمَ ابْتَعَدْتُ عَنْ بَلَدِي الْحَبِيبِ ؟ هَانَذَا أَصْبَحْتُ وَحِيدًا ، وَفِي
مَكَانٍ مُقْفَرٍ غَيْرِ عَامِرٍ بِالسُّكَّانِ . وَمِنْ الْغَبَاءِ أَنْ أَصْرُخَ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَكَانِ . »

الرُّخْ

وَبِكُلِّ مَشَقَّةٍ تَسَلَّقْتُ إِلَى أَعْلَى شَجَرَةٍ ، وَأَخَذْتُ أَنْظُرَ حَوْلِي . قَرَأْتُ
سَفِينَتَنَا مُبْجَرَةً بَعِيدًا ، وَلَمْ أَرِ فِي الْجَزِيرَةِ إِلَّا الْأَشْجَارَ ، وَلَا شَيْءَ غَيْرِ
الْأَشْجَارِ . وَلَمَّا أَطَلْتُ النَّظَرَ ، رَأَيْتُ عَنْ بَعْدِ شَيْئًا كَبِيرًا ، لَوْنُهُ أَيْضُ ،
وَيُشَبِّهُ قُبَّةً هَائِلَةً فَوْقَ بَيْتٍ .

سِرْتُ نَحْوَ هَذَا الشَّيْءِ عِدَّةَ سَاعَاتٍ حَتَّى وَصَلْتُ إِلَيْهِ عِنْدَ الْغُرُوبِ .
وَوَجَدْتُهُ يُشَبِّهُ بَيْضَةً ضَخْمَةً جِدًّا . وَفِي بَدَايَةِ الْأَمْرِ ، ظَنَنْتُهَا قُبَّةً ، وَلَكِنْ ،
سَأَلْتُ نَفْسِي : « إِنْ كَانَتْ قُبَّةً ، فَأَيْنَ الْبَيْتُ الَّذِي أُقِمْتُ عَلَيْهِ ، وَأَيْنَ
الْبَابُ ؟ »

بَيْنَمَا كُنْتُ أَرُدُّ هَذِهِ الْأَسْئَلَةَ فِي نَفْسِي ، إِذَا بِشَيْءٍ يَخْجُبُ الشَّمْسَ ،
وَيُحَوِّلُ النَّهَارَ لَيْلًا . وَرَفَعْتُ رَأْسِي قَرَأْتُ طَائِرًا ضَخْمًا جِدًّا . فَتَذَكَّرْتُ مَا
كُنْتُ أَسْمَعُهُ مِنَ الْبَحَّارَةِ عَنْ طَائِرٍ هَائِلٍ الْحَجْمِ يُقَالُ لَهُ الرُّخْ . وَلَنَا أَنْ تَتَخَيَّلَ



ضَخَامَتَهُ ، إِذَا عَلِمْنَا أَنَّهُ يَزُقُّ صَغِيرَهُ بِفِيلٍ مَرَّةً وَاحِدَةً . وَهُنَا تَأْكُدُ لِي أَنَّ
الطَّائِرَ الَّذِي أَرَاهُ هُوَ الرُّخْ ، وَقَدْ جَاءَ لِيَرْقُدَ عَلَى الْبَيْضَةِ . وَفِعْلًا حَضَنَ الْبَيْضَةَ
بِجَنَاحَيْهِ وَرَقَدَ عَلَيْهَا . وَهُنَا جَالَتْ فِي ذَهْنِي عِدَّةُ أَسْئَلَةٍ مِنْ بَيْنِهَا : « مِنْ أَيْنَ
جَاءَ الرُّخْ ، وَإِلَى أَيْنَ سَيَطِيرُ ؟ فَقَدْ يَطِيرُ إِلَى مَكَانٍ مَأْهُولٍ بِالسُّكَّانِ ، فَمَكَانٍ
مَأْهُولٍ أَفْضَلُ بِكَثِيرٍ مِنْ مَكَانٍ مُقْفَرٍ . »

أُسْرَعْتُ بِانْتِزَاعِ عِمَامَتِي مِنْ فَوْقِ رَأْسِي ، وَلَفَفْتُهَا حَوْلَ جِسْمِي وَسَاقِ
الرُّخِ الشَّيْبَةِ بِجَذْعِ الشَّجَرَةِ ، وَأَحْكَمْتُ الرُّبَاطَ . وَعِنْدَمَا طَلَعَ الصَّبَاحُ ،
طَارَ بِي فِي الْجَوِّ دُونَ أَنْ يَشْعُرَ بِوُجُودِي . وَطَارَ مَسَافَةً بَعِيدَةً فَوْقَ بَحَارِ

وَجُزُرٍ وَجِبَالٍ وَوُؤْدِيَانِ . وَأَخِيرًا هَبَطَ فِي وَادٍ سَحِيقٍ ، تَحْفُهُ الْهَضَابُ وَكَأَنَّهَا
أَسْوَارٌ شَاهِقَةٌ .

وادي الماس

انْقَضَ الرُّخُ فِي الْوَادِي عَلَى أَفْعَى ضَخْمَةٍ ، فَخَفْتُ عَلَى نَفْسِي ، وَخَلَلْتُ
عِمَامَتِي مِنْ سَاقِهِ وَوَلَّيْتُ هَارِبًا ، إِلَى أَنْ وَجَدْتُ صَخْرَةً كَبِيرَةً اخْتَبَأْتُ
وَرَاءَهَا . أَمَّا الرُّخُ فَقَدْ رَفَعَ الْأَفْعَى بَيْنَ مَخَالِبِهِ ، وَطَارَ فِي الْجَوِّ .

نَظَرْتُ حَوْلِي فَرَأَيْتُ الْأَفَاعِيَ الْمُخِيفَةَ تَسْعَى فِي الْوَادِي ، حَتَّى إِنْ بَعْضُهَا
كَانَ يُضَارِعُ السَّفِينَةَ فِي طُولِهَا . وَلَكِنَّهَا فِي وَضْعِ النَّهَارِ تَلْجَأُ إِلَى جُحُورِهَا ،
لِأَنَّهَا تَنَامُ نَهَارًا ، وَتَسْعَى فِي طَلَبِ طَعَامِهَا لَيْلًا . وَلِهَذَا لَا خَوْفَ عَلَيَّ مِنْهَا فِي
النَّهَارِ ، وَأَسْتَطِيعُ أَنْ أَبْحَثَ عَنْ مَخْرَجٍ لِي مِنَ الْوَادِي . وَمَشَيْتُ مَسَافَةً
طَوِيلَةً ، وَإِذَا بِي أَرَى أَنَّ قَاعَ الْوَادِي مُغَطًى بِالْمَاسِ النَّفِيسِ ، وَبِأَحْجَامٍ كَبِيرَةٍ
وَجَمِيلَةٍ ، وَلَكِنِّي مَا كُنْتُ رَاجِعًا فِي الْمَاسِ ، بَلْ فِي الْخُرُوجِ مِنْ ذَلِكَ الْوَادِي .

وَعِنْدَمَا حَلَّ اللَّيْلُ ، بَدَأَتِ الْأَفَاعِيَ تَخْرُجُ مِنْ جُحُورِهَا ، وَلِحُسْنِ حَظِّي
وَجَدْتُ نَفْسِي عَلَى مَقَرَبَةٍ مِنْ كَهْفٍ صَغِيرٍ عَلَى مَدْخَلِهِ صَخْرَةٌ كَبِيرَةٌ ، فَجَرَيْتُ
إِلَيْهِ وَأَرَحْتُ الصَّخْرَةَ الْكَبِيرَةَ عَنْ مَدْخَلِهِ . وَكَانَتْ هَذِهِ الصَّخْرَةُ نِعْمَةً لِي ، إِذْ
حَمَتْنِي طِيلَةَ اللَّيْلِ مِنَ الْأَفَاعِيَ الَّتِي كُنْتُ أَسْمَعُ فَحِيحَهَا حَوْلَ الْكَهْفِ ،
وَلَكِنَّهَا لَمْ تَسْتَطِعْ الْوُصُولَ إِلَيَّ .

تَجَارُ الْمَاسِ

فِي الصَّبَاحِ ، خَرَجْتُ مِنَ الْكَهْفِ ، وَفَكَّرْتُ مُنْصَرِفٌ إِلَى كَيْفِيَّةِ الْخُرُوجِ
مِنَ الْوَادِي . وَإِذَا بِي أَسْمَعُ صَوْتَ ارْتِطَامِ شَيْءٍ بِالْأَرْضِ قَرِيبًا مِنِّي . وَالتَفَتُّ
إِلَى جِهَةِ الصَّوْتِ ، فَشَاهَدْتُ كُتْلَةً مِنَ اللَّحْمِ سَقَطَتْ عَلَى قِطْعِ الْمَاسِ ، وَالْدَّمُ
لَا يَزَالُ يَسِيلُ مِنْهَا . فَعَجِبْتُ لِمَا أَرَى ، وَعِنْدَهَا عَادَتْ بِي الذَّاكِرَةُ إِلَى مَا
سَمِعْتُهُ عَنْ وَادِي الْمَاسِ ، وَكَيْفَ يَتَحَايِلُ التَّجَارُ عَلَى جَمْعِهِ بِالْقَاءِ كُتْلَ اللَّحْمِ
فَوْقَ الْمَاسِ فِي الْوَادِي . وَمِنْ شَأْنِ خَرَارَةِ الشَّمْسِ أَنْ تُجْعَلَ كُتْلُ اللَّحْمِ لِرَجَةٍ
فَتُلْتَصِقُ بِهَا قِطْعُ الْمَاسِ . وَتَجِيءُ الطُّيُورُ الضَّخْمَةُ فَتَحْمِلُهَا بَيْنَ مَخَالِبِهَا ،
وَتُطِيرُ بِهَا لِتُطْعِمَ صِغَارَهَا فِي الْهَضَابِ الْقَرِيبَةِ . وَمَا إِنْ تَهَيَّطَ الطُّيُورُ ، حَتَّى
يُفَاجِئَهَا التَّجَارُ بِالصَّيِّحَاتِ الْقَوِيَّةِ ، فَتَنْفِرُ وَتَلُودُ بِالطَّيْرَانِ ، وَيَذْهَبُ كُلُّ
تَاجِرٍ إِلَى كُتْلَةِ اللَّحْمِ الَّتِي أَلْقَاهَا ، وَيَجْمَعُ مَا لَصِقَ بِهَا مِنَ الْمَاسِ .

قُلْتُ فِي نَفْسِي : « لَقَدْ جَاءَ بِي إِلَى هَذَا الْمَكَانِ طَائِرٌ ، وَمِنْ الضَّرُورِيِّ أَنْ
يَأْخُذَنِي مِنْ هَذَا الْمَكَانِ طَائِرٌ آخَرُ . » وَبِنَاءً عَلَى هَذَا الْإِفْتِرَاضِ ، مَلَأْتُ كَيْسَ
الطَّعَامِ الَّذِي كَانَ مَعِيَ بِأَكْبَرِ قِطْعِ الْمَاسِ وَأَنْفَسِيهَا ، ثُمَّ فَكَّكْتُ عِمَامَتِي
وَلَفَفْتُهَا حَوْلَ جِسْمِي وَأَكْبَرِ كُتْلَةِ مِنَ اللَّحْمِ ، وَأَخْكَمْتُ شُدَّهَا ،
وَأَسْتَلْقَيْتُ عَلَى الْأَرْضِ بِحَيْثُ تُكَوْنُ كُتْلَةُ اللَّحْمِ فَوْقِي .

الْإِنْقَادُ

بَعْدَ فِتْرَةٍ هَبَطَ طَائِرٌ ضَخْمٌ جَدًّا وَرَفَعَنِي وَكُتْلَةَ اللَّحْمِ ، وَطَارَ بِي مِنْ

الوادي . وَكَانَ صِيعَارُ الصَّائِرِ يَنْتَظِرُ أَبِيَهُمْ عِنْدَ قِيعَةِ الْهَضْبَةِ . وَمَا إِنْ رَأَاهُ
التُّجَّارُ ، حَتَّى تَعَالَتْ صِيحَاتُهُمْ ، فَأَتَى الطَّائِرُ كُتْلَةَ اللَّحْمِ وَطَارَ . وَقَدْ
أَصِيبُوا بِالدُّغْرِ عِنْدَ رُؤْيِ أَحْلِ الرِّبَاطِ وَانْهَضَ عَلَى قَدَمَيْهِ وَالْدَّمُ يُلَطُّحُ
مَلَابِسِي ، وَذَلَّائِلُ الْمَرَضِيِّ عَلَى جِسْمِي بَعْدَ رَحْمَتَيْنِ خَوَّيْتَيْنِ قُمْتُ بِهِمَا
مَرْبُوطًا فِي كُلِّ مَرَّةٍ إِلَى سَاقِ طَائِرٍ . وَلَكِنِّي هَذَا مِنْ رُؤُوعِهِمْ . وَقُلْتُ لَهُمْ :

« أَنَا رَجُلٌ مِثْلُكُمْ ، وَقَدْ حَمَلَنِي الطَّائِرُ الَّذِي حَمَلَ كُتْلَةَ اللَّحْمِ مِنْ وَادِي
الْمَاسِ . وَلَمْ يَلْصِقْ بِكُتْبَةِ اللَّحْمِ هَذِهِ شَيْءٌ مِنَ الْمَاسِ ، وَلَكِنِّي أَخْضَرْتُ مَعِيَ
قِطْعًا مِنْهُ ، كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا أَفْضَلُ مِنْ كَثِيرٍ مِنْ جَمِيعِ الْمَاسِ الَّذِي كَانَ سَيَلَصِقُ
بِكُتْبَةِ اللَّحْمِ وَإِنِّي نَكَالٌ سُرُورٍ سَأَعْطِي بَعْضًا مِنْهَا لِصَاحِبِ كُتْلَةِ اللَّحْمِ
هَذِهِ . »

اقْتَرَبَ التُّجَّارُ مِنِّي ، وَتَعَرَّفْتُ إِلَيْهِمْ ، وَتَحَدَّثُوا مَعِيَ بِمَا حَفَفَ عَنِّي مَا
لَاقَيْتُهُ ، فَقَدْ قَالُوا لِي : « إِنَّكَ إِنْسَانٌ مَحْطُوطٌ ، إِذْ لَمْ يُقَدَّرْ لِلْإِنْسَانِ مِنْ قَتْلِ أَنْ
يَخْرُجَ مِنْ هَذَا الْوَادِي . »

وَسَاعَدَنِي التُّجَّارُ عَلَى بَيْعِ نَعْصِرِ قِطْعِ الْمَاسِ ، وَالسَّحْتُ عَنْ سَمِيَةِ تَقْصِيدُ
بَعْدَادَ .

الْعَوْدَةُ

عُدْتُ إِلَى بَعْدَادَ رَحْلًا عَيْيًا جَدًّا بِمَا أَكْمَنُهُ مَعِيَ مِنْ أَكْثَرِ قِطْعِ الْمَاسِ فِي
الْعَالَمِ وَمِنْ الصَّائِعِ النَّفِيسَةِ . وَعِنْدَمَا وَطِئْتُ قَدَمَايَ أَرْضَ الْوَطَنِ ، قُمْتُ

النَّفْسِي : « سَأَقْصِي بَقِيَّةَ عُمْرِي فِي نَيْتِي الْحَمِيلِ ، أُنْفِقُ مِنْ ثَرَوَتِي الطَّائِلَةِ ،
أَسْتَمِيعُ بِصُخْبَةِ أَصْدِقَائِي . أَمَّا رُكُوبُ الْبَحْرِ فَلَا عَوْدَةَ إِلَيْهِ ، بَعْدَ أَنْ تَجَسَّسْتُ
الْمَشَاقَّ ، وَتَعَرَّضْتُ لِلْأَخْطَارِ فِي رَحْلَتِي اللَّتَيْنِ قُمْتُ بِهِمَا . »

وَلَكِنِّي لَمْ أَفْ بِمَا وَعَدْتُ ، بَلْ رَكِبْتُ الْبَحْرَ مَرَّةً ثَالِثَةً . وَغَدَا إِنْ شَاءَ
اللَّهُ ، سَأُحَدِّثُكُمْ ، أَيُّهَا الْأَصْدِقَاءُ ، عَنْ رَحْلَتِي الثَّالِثَةِ .

الرَّحْلَةُ الثَّالِثَةُ

لَمْ يَمُصْ زَمَنٌ طَوِيلٌ حَتَّى تَأَقَّتْ نَفْسِي لِرِيَاةِ ثُلْدَانٍ لَمْ أَرُهَا مِنْ قَبْلُ ،
أَبِيعُ فِيهَا وَأَشْتَرِي . وَكَانَ أَنَّ أَقْدَعْتُ مِنَ الْبَصَرَةِ مَعَ آخَرِينَ مِنَ التُّحَّارِ عَلَى
سَفِينَةٍ عَظِيمَةٍ ، رَاخَتْ تَتَقَلُّ بِهَا مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ ، وَمِنْ جَزِيرَةٍ إِلَى جَزِيرَةٍ .
وَكُنَّا نَبِيعُ وَنَشْتَرِي وَنَكْسِبُ الْكَثِيرَ ؛ فَكَثُرَتْ أَمْوَالُنَا ، وَرَادَتْ ثَرَوَاتُنَا ،
عِلَاوَةً عَلَى السُّرُورِ الَّذِي نَعْمُدُ بِهِ أَثَاءَ الرَّحْلَةِ .

وَوَسَطَ هَذَا الْحَوِّ مِنَ السُّرُورِ الَّذِي كُنَّا نَعِيشُهُ ، هَبَّتْ عَلَيْنَا عَاصِفَةٌ
هَوَّجَاءُ جَعَلَتْ مِنَ السَّفِينَةِ الْقَوَّةَ تَتَلَهَّى بِهَا ، تَقْدِفُهَا دَائِ الْيَمِينِ وَدَائِ
الشَّمَالِ . وَدَامَتْ الْعَاصِفَةُ أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ بِلِيَالِهَا ، كُنَّا جَلَالُهَا تَحْتَ رَحْمَتِهَا ،
إِلَى أَنْ وَجَدْنَا أَنْفُسَنَا عِنْدَ جَزِيرَةٍ

وَجَاءَنَا الرُّبَّانُ ، وَعَلَامَاتُ الْخَوْفِ وَالْقَلَقِ مُرْتَسِمَةً عَلَى وَجْهِهِ ، وَقَالَ :
« لَنْ نَسْتَطِيعَ مُوَاصَلَةَ الْإِنْبَحَارِ فِي مِثْلِ هَذَا الْجَوِّ الْعَاصِفِ ، وَلَا نَسْتَطِيعُ
الْقُرُولَ فَوْقَ هَذِهِ الْحَرِيرَةِ ، فَأَنَا أَغْرِفُ الْكَثِيرَ عَنْهَا ؛ إِنَّهُ تَعِيشُ فَوْقَهَا جَمَاعَاتُ
مِنَ الْقُرُودِ ، إِذَا رَأَتْ سَفِينَةً صَعِدَتْ إِلَى ظَهْرِهَا بِالْآلَافِ . وَلَوْ حَاولَ أَحَدٌ
مَنْعَهَا مِنَ الصُّعُودِ ، هَجَمَتْ عَلَيْهِ حُمُوعُهَا وَفَتَكَتْ بِهِ . وَعَلَيْهِ أَرْحُو الْآلَا
يُحَاولُ أَحَدُكُمْ التَّعَرُّضَ لَهَا . »

الْقُرُودُ

مَا كَادَ الرُّبَّانُ يُتِمُّ كَلَامَهُ ، حَتَّى أَخَذَتِ الْقُرُودُ تَتَوَافَدُ بِالْآلَافِ .
صَعِدَتْ إِلَى سَطْحِ السَّفِينَةِ ، دُونَ أَنْ يَتَعَرَّضَ لَهَا أَحَدٌ . ثُمَّ أَمْسَكَتْ
بِالْبَحَّارَةِ وَالتُّحَّارِ وَأَنْزَلَتْهُمْ إِلَى الْجَزِيرَةِ ، وَقَامَتْ بِتَسْيِيرِ السَّفِينَةِ إِلَى جِهَةِ
أُخْرَى بَعِيدًا عَنِ الْجَزِيرَةِ .

تَعَدَّ اسْتِيْلَاءُ الْقُرُودِ عَلَى السَّفِينَةِ وَمَا فِيهَا ، أَخَذْنَا نَسْعِمُ الْبَطَرُ فِيمَا نَحْنُ فِيهِ ؛
وَأَرَدْتُ عَلَى خَوَاطِرِنَا الْأَفْكَارَ وَالْأَفْرَاصَاتِ : « مِنْ الْمُسْلِمِ بِهِ أَنْ فِي
الْحَرِيرَةِ قُرُودًا أُخْرَى لَا خَصَرَ لَهَا . مَاذَا عَسَا أَنْ نَفْعَلَ ؟ مَا هُوَ الْمَكَانُ
الَّذِي نَسْتَطِيعُ الذَّهَابَ إِلَيْهِ ؟ »

وَشَاهَدَ أَحَدُ الْبَحَّارَةِ مِنْ أَعْلَى شَجَرَةٍ كَانَ يَقِفُ عَلَيْهَا يَتَنَا خَجَرِيًّا صَحْحًا .
فَقَالَ مُتَسَائِلًا : « أَمِنْ الْحِكْمَةِ أَنْ نَقْصِدَ ذَلِكَ الْبَيْتَ وَنَحْتَسِبُ فِيهِ لِإِثْقَاءِ شَرِّ
هَؤُلَاءِ الْقُرُودِ ؟ »

فِي ذَلِكَ الْبَيْتِ الْحَخَرِيِّ ، دَخَلْنَا قَاعَةً مَسِيحَةً ، وَكُنَّا نَتَطَلَّعُ بِحَرَصٍ إِلَى
« سَفَاحٍ » بِهِ . وَإِذَا بِمَا سَمِعُ وَقَعَ أَقْدَامُ مَارِدٍ . وَمَا لَنْ دَخَلَ الْقَاعَةَ ، حَتَّى
أَغْلَقَ الْبَابَ الضَّخْمَ خَلْفَهُ ؛ فَسَدَّ أَمَامَنَا طَرِيقَ الْهَرَبِ .

طَعَامُ الْمَارِدِ

كَانَ الْمَارِدُ ضَخْمَ الْجُثَّةِ ، وَكَأَنَّهُ شَجَرَةٌ بِاسِيقَةٍ بَعِيشٍ وَكَأَنَّهُمَا شُعْتَانِ مِنْ

بارٍ مُتَأَحِّيةً ، وَأَسَابٍ كَانَتْهَا صُحُورٌ حَادَّةٌ بَيْصَاءُ ، وَفِي كَأَنَّهُ كَهْفٌ . وَبَعْدَ
أَنْ اسْتَقَرَّ بِهِ الْمَقَامُ ، أَخْرَجَ بَعْضَ الْحَطَبِ مِنْ صُنْدُوقٍ فِي الْقَاعَةِ ، وَأَشْعَلَ
بِيرَانًا كَبِيرَةً ، ثُمَّ أَحَدَ يَتَمَرُّسُ فِي وَجْهِهَا . وَكُنْتُ أَوَّلَ مَنْ رَفَعَهُ بِيَدِهِ . وَأَخَذَ
يُقَسِّي ؛ فَوَحَدَنِي صَعِيفًا هَرِيبًا فَرَكِي . وَلَحُسَّ الْحَطَّ ، أَنَّ مَلَابِسِي
الْمَاجِرَةَ كَانَتْ تَكْسُو جَسْمًا لَيْسَ بِأَسْمَنَ مِنْ أَصْبَعِهِ . ثُمَّ أَخَذَ يَرْفَعُ الرِّجَالَ ،
وَاحِدًا تَلُوَ الْآخَرَ ، حَتَّى وَجَدَ الْأَسْمَنَ ؛ فَأَكَمَهُ . وَبَعْدَ أَنْ اسْتَرَاحَ قَلِيلًا ،
غَرِقَ فِي نَوْمٍ عَمِيقٍ .

وَفِي صَبَاحِ الْيَوْمِ الْتَالِيِ ، عَادَ الْمَارِدُ الْبَيْتَ ، بَعْدَ أَنْ أَغْلَقَ أَبَابَ الصَّخْمِ



خَلْفَهُ ؛ فَتَعَذَّرَ عَلَيْنَا الْخُرُوجُ . وَعِنْدَمَا حَلَّ الْمَسَاءُ ، عَادَ الْمَارِدُ ثَانِيَةً ، وَأَخَذَ
يَرْفَعُنَا بِيَدِهِ ، وَاحِدًا تَلُوَ الْآخَرَ ، حَتَّى وَجَدَ ضَالَّتَهُ فِي شَخْصِ رُبَّانِ الْسَّفِينَةِ ؛
فَأَكَلَهُ وَنَامَ .

فِرَارُنَا مِنَ الْمَارِدِ

بَعْدَ أَنْ غَادَرَ الْمَارِدُ الْبَيْتَ فِي صَبَاحِ الْيَوْمِ الْتَالِيِ ، وَأَوْصَدَ الْبَابَ خَلْفَهُ ،
خَاطَبْتُ أَصْحَابِي قَائِلًا : « عَلَيْنَا أَنْ نَفْعَلَ شَيْئًا ، وَإِلَّا فَسَيَاكُمَا الْمَارِدُ وَاحِدًا
تَعْدَ الْآخَرِ . إِنَّهُ صَحْمٌ فَلَا نَسْتَطِيعُ الْفُتْكَ بِهِ فِي حَالِهِ يَقْطَعُهُ . » ثُمَّ أَطْلَعْتُهُمْ
عَلَى الْخُطَّةِ الَّتِي دَبَّرْتُهَا .

فِي مَسَاءِ ذَلِكَ الْيَوْمِ ، خَصَرَ الْمَارِدُ - كَعَادَتِهِ - وَجَلَسَ فِي الْقَاعَةِ ،
وَأَخَذَ وَاحِدًا مِنَّا وَالتَّهَمَهُ ، ثُمَّ نَامَ .

وَبِمُنْتَهَى السَّرْعَةِ شَرَعْنَا فِي تَفْيِيزِ حُطْبِنَا : وَضَعْنَا اثْنَانِ مِنَّا قَصِيَيْنِ مِنَ
الْحَدِيدِ فِي النَّارِ حَتَّى أَصْبَحَا مِثْلَ جَمْرَتَيْنِ ، وَفِي نَفْسِ الْوَقْتِ قَامَ اثْنَانِ آخَرَانِ
بِخَرْقٍ مَنَعِدٍ فِي الْبَابِ ، عَلَى حِينِ انْصَرَفَ اثْنَانِ إِلَى بِنَاءِ عِدَّةِ أَطْوَافٍ مِنْ قِطْعِ
الْخَشَبِ الَّتِي كَانَ الْمَارِدُ قَدْ وَضَعَهَا فِي الصَّنْدُوقِ .

وَمَا إِنْ تَمَّ كُلُّ شَيْءٍ خَسَتْ الْخُطَّةُ الْمَرْسُومَةَ ، حَتَّى صِيحَتْ فِيهِمْ قَائِلًا :
« الْآنَ ! » وَهِيَ كَلِمَةُ السَّرِّ بَيْنَنَا . فَعَرَّزْنَا الْقَضِيَّتَيْنِ الْمُتَهِمَتَيْنِ فِي عَيْنَيْهِ ، ثُمَّ
وَلَّيْنَا الْأَذْبَارَ ، حَامِلِينَ الْأَطْوَافَ الَّتِي أُغْذِذْنَا بِهَا ، وَجَرَيْنَا نَحْوَ الشَّاطِئِ .

وَكَانَتْ صَرَخَاتُ الْمَارِدِ تَطْنُ فِي آذَانِنَا . وَأَنْزَلْنَا الْأَطْوَافَ إِلَى الْمَاءِ . وَمَا

كَيْدًا تَتَحَرَّكُ ، حَتَّى رَأَيْنَا الْمَارِدَ ، يَقُودُهُ أَشَابٌ مِنْ أَصْدِقَائِهِ بَعْدَ أَنْ فَقَدَ بَصَرَهُ ،
يَسِيرُونَ إِلَى الشَّاطِئِ . وَمَا إِنْ أَبْصَرَانَا حَتَّى قَذَفَانَا بِالصُّحُورِ الْكَبِيرَةِ ،
وَكَانَتْ الْوَاحِدَةُ مِنْهَا فِي حَجَمِ النَّيْتِ . وَقَدْ سَقَطَ بَعْضُهَا فِي الْخَرِّ ، وَأَصَابَ
بَعْضُهَا الْآخَرَ أَصْوَابًا ، وَقَتْلَ بَعْضِ رَجَالِنَا . وَلَمْ يَتَّحِ إِلَّا الطُّوفُوفُ الَّذِي كُنْتُ
فِيهِ . وَقَدْ نَدَلْنَا أَقْصَى الْجُهودِ لِنَحْوِلَ الْخُرُوجَ بِهِ إِلَى غُرْصِ الْخَرِّ ، ثُمَّ هَبَتْ
عَوَاصِفٌ عَاتِيَةٌ حَمَلَتْهَا بَعِيدًا ، وَطُتْ تَتَمَادُهَا أَيَّامًا ، إِلَى أَنْ أَلْقَتْ بِنَا عَلَى
شَاطِئِ جَزِيرَةٍ .

الْأَفْعَى

لَمْ تُكُنْ النَّحَاةُ إِلَّا لثَلَاثَةِ مَيَّاتٍ . وَلَكِنْ أَحْوَالُنَا كَانَتْ سَيِّئَةً ، فَكَانَ قَدْ
مَضَى عَلَيْنَا وَقْتُ طَوِيلٍ بِدَوْنِ طَعِيمٍ أَوْ مَاءٍ . وَفِي الْحَرِيرَةِ وَحْدُنَا أَشْجَارٌ
فَاكِهَةٌ وَلَهْيَرًا عَذْبٌ أَلْمِيَاءُ ، فَأَكَلْنَا وَشَرَبْنَا .

بَعْدَ بَلَدِ الرِّحَةِ الْمُضْئِيَةِ فِي الطُّوفِ ، غَزَا النَّعَاسُ أَجْفَانَنَا ، فَرَحْنَا فِي
سُبَابِ عَمِيقٍ ، وَلَمْ يَوْقِظْنَا إِلَّا فَحِيحُ مُنَوَاصِلٍ . وَبَطَرْنَا حَوْلَنَا .. وَيَالِهَوُلْ مَا
رَأَيْنَا ! رَأَيْنَا أَفْعَى ضَخْمَةً التَّقَتْ حَوْلَنَا ، بِحَيْثُ لَمْ نَسْتَطِعْ الْفِرَارَ . ثُمَّ بَدَأَتْ
بِوَاحِدٍ مِنْ صَاحِبِي ، فَابْتَدَعَتْهُ دُونَ أَنْ تَنْهَشَ لَحْمَهُ ، بَلْ رَأَيْنَاهُ وَهُوَ يَدْخُلُ فِي
جُوفِهَا ، وَسَمِعْنَا صَيِّحَاتِ اسْتِعَاثَتِهِ تَرْدُدُ بَعْضُ الْوَقْتِ ثُمَّ تَهَمُّدُ إِلَى الْأَبَدِ .

قَضَيْتِ الْأَفْعَى اللَّيْلَةَ بِطُولِهَا فِي مَكَائِهَا ، عَلَى جِوْنِ ثَمَلَكِي وَصَاحِبِي
الدُّغَرِ ؛ فَلَمْ يَتَحَرَّكْ أَحَدُنَا أَوْ يَنْسُ بِكَيْمَةٍ . وَفِي الصَّبَاحِ ، انْسَابَتْ رَاحِمَةٌ إِلَى

جُحْرِهَا . وَتَشَاوَرْتُ وَصَاحِبِي فِيمَا يَحِبُّ عَلَيْنَا أَنْ نَفْعَلَهُ ، قَبْلَ أَنْ نَعُودَ
الْأَفْعَى وَتَبْلُغَ أَحَدَنَا . وَأَخَذْنَا نَحْوِلُ بَيْنَ الْأَشْجَارِ وَنَقْطِفُ الثَّمَارَ وَنَرْثَوِي
مِنْ مِيَاهِ الشَّهْرِ ، وَنَحْنُ نَبْحَثُ عَنْ كَهْفٍ نَحْتَبِي فِيهِ ؛ وَلَكِنَّا فَشَلْنَا فِي
مُحَاوَلَتِنَا . وَقَبْلَ حُلُولِ الطَّلَامِ صَعِدْنَا شَجَرَةً لِنَنَامَ فَوْقَهَا . وَلَمَّا كُنْتُ أُنْمُقُ
عَلَى زَمِيلِي فِي الْقُوَّةِ الْجِسْمِيَّةِ ، فَقَدْ اسْتَطَعْتُ أَنْ أُصْعِدَ أَعْلَى مِثْنِ . وَلَمَّا حَلَّ
الَّيْلُ ، عَادَتِ الْأَفْعَى تَبْحَثُ عَنَّا . فَتَسَلَّقَتِ الشَّجَرَةَ وَاتَّلَعَتْ صَاحِبِي .
وَطَلَلْتُ هُبَيْهَةً أَسْمَعَ صَيِّحَاتِ اسْتِعَاثَةٍ مِنْ جُوفِ الْأَفْعَى تُطْرُقُ فِي أُذُنِي .
وَهَكَذَا وَجَدْتُ نَفْسِي وَحِيدًا .

فِي الصَّبَاحِ ، عَادَتِ الْأَفْعَى الْمَكَانَ ، فَسَاءَلْتُ نَفْسِي : « مَاذَا عَسَايَ
أَنْ أَفْعَلَ ؟ سَتَعُودُ الْأَفْعَى لَيْلًا وَتَفْعَلُ بِي مَا فَعَلَتْ بِصَاحِبِي . هَلْ أَقْدِفُ نَفْسِي
فِي الْبَحْرِ لِأَنْجُو مِنْ شَرِّهَا ؟ »

تَعَدَّ أَنْ تَسْأَلْتُ بَعْضَ الْمَاكِهَةِ ، أَخَذْتُ أَفْكُرَ ، وَأَفْكُرَ . وَأَحِيرًا قَرَرْتُ أَنْ
أَسِيرَ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ . وَلِحُسْنِ الْحِظِّ لَمْ أَرِ لِلْقُرُودِ أَثَرًا فِي تِلْكَ الْحَزِيرَةِ .
وَلَكِنِّي رَأَيْتُ أَكْوَامًا مِنَ الْخَشَبِ وَالْحَبَالِ ، وَكَانَتْ مِنْ بَقَايَا سُفْرِ مُخْطَمَةٍ .
وَعَلَى الْفُورِ اخْتَرْتُ قِطْعًا طَوِيلَةً مِنَ الْخَشَبِ وَصَنَعْتُهَا حَوْلَ قَدَمِي وَفَوْقَ
رَأْسِي وَحَوْلَ جِسْمِي وَحَابِسِي ، وَشَدَدْتُهَا بِالْحَبَالِ لِأَسْتَهَا ، وَرَقَدْتُ عَلَى
الْأَرْضِ أَنْتَظَرًا لِمَا سَيَحْدُثُ .

لَمَّا هَبَطَ اللَّيْلُ ، رَأَيْتُ الْأَفْعَى تَفْتَحُ فَمَهَا وَتَنْقُضُ عَلَى رَأْسِي ، وَعَلَى
حَاسِي ، وَعَلَى قَدَمِي وَعَلَى الْحَابِيبِ الْآخِرِ مِنْ جِسْمِي ، وَلَكِنِّي فَشَلْتُ فِي

الوصول إلي . فقد منعتها قطع الخشب من تحقيق مأربها . وزعم
محاو لايتها المتكررة لم تفلح في الوصول إلى أي عضو من أعضاء جسمي .
ولما أغيتها الحبل ، غادرت المكان .

في الصباح ، صنعت لنفسي رزقا من بقايا حطام السفن وقطع الخشب
والجبال ، ثم جمعت نعض الكفاكية ، وملأت بعض الأواني بالماء ، وترلت
البحر هربا من تلك الجزيرة الرهيبة .

سفينة النجاة

لا أريد أن أتذكر تلك الأيام التي قضيتها في عرض البحر على رزق
مكشوف ، حينما كانت الشمس تنفخني بحرارتها المتوهجة ، والأمواج
تقذف بالرزق هنا وهناك . ولكن ، ما بعد العسر إلا اليسر ، وما بعد
الصيق إلا الفرج ، فقد لاحت لي عن بعد سفينة ثمخر غباب البحر

وقد لعبت الخط دوزة ، عندما شاهدني تحارثها ؛ فاسرعوا لإنقاذي ،
واحسنوا معاملتي . وقد سمع الرئان وبعض البحارة بمأساتي ؛ فطيب الرئان
حاطري قائلا : « ستخيمك إلى البصرة ، بعد ريارتنا لنعض الأماكن ، حيث
سيبيع الثحار بضائعهم ويتعاون غيرها . وإذا ما طابت الريح في رحلتنا ،
حملناك إلى البصرة في أقرب وقت ممكن . »

وفي أول مساء رست فيه السفينة ، سمعت الرئان يلتقي بأوامره إلى

البحارة : « أخضروا بصائع السدياد لبيعها وتسلم ثمنها إلى أسرته في
بغداد . »

ولما سمعت ما قاله الرئان ، تقدمت منه وسألته : « هل تحمل البصائع
علامات مميزة ؟ » لأنني أصنع علامات خاصة دائما على بصائعي وصناديقي
في جميع رحلاتي . فأجابني الرئان : « نعم ! إن البضاعة تحمل علامات
مميزة . ولكن ، كيف عرفت ذلك ؟ » لقد مضى على هذه البضاعة زمن
صويل وهي أسفل جميع البصائع الأخرى ، وقد لقي صاحبها حتفه في
جزيرة الرخ منذ زمن طويل . »

فصاحته بقوي : « أيها الرئان ! إن صاحبها لم يموت ، بل هو حي
زرقي ، فأنا السدياد . »

ورويت له ما جرى لي منذ البداية حتى النهاية . ولكن لم يكن من السهل
على الرئان أن يصدقني في الحال . ولكنه اقتنع أخيرا بصدق قولي ، لما أوردته
من أدلة واضحة . وبعد أن بعث بصاعبي واشتريت غيره لأبيها في بغداد ،
وحدث ثروتي قد ازدادت أصعافا مصعفة بعد أرخنة آتالية . وقد عرفت
على أن أعيش سعيدا في بغداد دون أن أغامر في أية رحنة أخرى .

ولكنني أخلفت الوعد ، وسأخذتكم غدا - إن شاء الله - عن رحلتي
الرابعة .

الرَّحْلَةُ الرَّابِعَةُ

فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ ، قَدِمَ لِرِيَارَتِي بَعْضُ التُّحَّارِ ، وَخَلَسْنَا نَسْتَعِيدُ ذِكْرِيَّاتِ
الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ، بِمَا فِيهَا مِنْ رِخْلَاتٍ ، وَبِمَا رَزَّيْنَا مِنْ أَمَاكِينِ . وَلَمْ يَخْصُرْنَا فِي
حَدِيثِهَا إِلَّا حُلُوُّ الذِّكْرِيَّاتِ . وَتَطَرَّقَ بِنَا الْحَدِيثُ إِلَى صَرُورَةِ الْقِيَامِ بِرَحْلَةٍ إِلَى
الْشَّرْقِ ، لِمَا فِيهَا مِنْ فَوَائِدَ لَنَا . وَمَا إِنْ اتَّفَقْنَا حَتَّى حَرَمْتُ نَعْضُ النَّضَائِعِ ،
وَأُبْحَرْنَا خُبُوبًا مَشْرِقًا قَاصِدِينَ بُلْدَانَ الشَّرْقِ الْغَيْبَةِ بِخَيْرَاتِهَا . وَقَدْ أَحْدَثَ
السَّفِينَةُ تَثَقُّلًا بِمَا مِنْ جَزِيرَةٍ إِلَى جَزِيرَةٍ ، وَمِنْ نَحْرِ إِلَى نَحْرِ ، نَسِيعٌ وَنَشْتَرِي ،
وَنَمْتَعُ عُيُونَنَا بِمَبَاهِجِ الْحَيَاةِ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ .

وَفِي إِحْدَى اللَّيَالِي ، وَنَحْنُ عَلَى نَعْدٍ شَاسِعٍ مِنَ الْوُطَنِ ، هَمَّتْ عَلَيْنَا عَاصِفَةٌ
هَوَّجَاءُ أَطَاحَتْ بِالسَّفِينَةِ وَقَلَبَتْهَا عَلَى حَاسِهَا ، وَقَدَفَتْ بِهَا وَسَطَ الْبَحْرِ .
وَأَصْبَحْنَا تَحْتَ رَحْمَتِهِ ، وَاتَّقَيْتُ وَأَنَا أَشَاهِدُ السَّفِينَةَ تَعُوضُ فِي أَعْمَاقِ النَّحْرِ
أُتَاهَا سَاعَتِي الْأَخِيرَةُ . وَتَيْمًا كُنْتُ أَصَارِعُ الْأُمُوحَ ، رَأَيْتُ لَوْحًا مِنْ
الْخَشَبِ يَقْتَرِبُ مِنِّي ، فَأَمْسَكْتُ بِهِ تِسْ دِرَاعِي ، وَعَاوَنْتُ نَعْضَ التُّجَّارِ
وَالنَّحَّارِ عَلَى أَنْ يَتَعَلَّقُوا بِاللُّوَّاحِ خَشْيَةً أُخْرَى كَانَتْ تَطْمُو فَوْقَ الْمَاءِ .

أُخْيَاءٌ عَلَى الشَّاطِئِ

اسْتَمَرَّتِ الرِّيَّاحُ وَالْأُمُوحُ تَدْفَعُنَا إِلَى أَنْ قَدَفَتْ بِهَا عَلَى الْيَابِسَةِ . وَمِنْ شِدَّةِ

مَا لَحِقْنَا مِنْ تَعَبٍ ، قَصَصْنَا لَيْلَتَنَا حَيْثُ كُنَّا . وَمَا إِنْ أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ ، حَتَّى
طَلَعَ عَلَيْنَا بَعْضُ الرِّجَالِ ، وَكَانُوا شَدِيدِي الشَّاعَةِ . وَأَخَذُونَا إِلَى مَلِكِهِمْ نَعَدُ
أَنْ أَوْسَعُونَا ضَرْبًا بِأَيْدِيهِمْ وَرَكْلًا بِأَقْدَامِهِمْ .

وَلَمَّا مَثَلْنَا أَمَامَ الْمَلِكِ ، أَمَرَ رِجَالَهُ بِإِجْلَاسِنَا وَتَقْدِيمِ الطَّعَامِ لَنَا . وَكَانَ
الطَّعَامُ غَرِيبًا ، لَمْ أَرْ لَهُ مَثِيلًا مِنْ قَبْلِ . وَلَكِنْ الْخَوْعُ دَفَعَ التُّجَّارَ وَالنَّحَّارَ إِلَى
تَنَاوُلِهِ ، أَمَا أَنَا ، فَلَمْ تَقْبَلْهُ نَفْسِي ، لِأَنْ مُحَرَّرَ النَّطَرُ إِلَيْهِ أَصَابِي بِالْعُثْيَانِ

مَا أَسْعَدَنِي ! فَالْحَطُّ لَمْ يُفَارِقْنِي . لَقَدْ تَرَكَ الطَّعَامُ أَثَرًا غَرِيبًا فِي أَصْحَابِي ،
فَرَأَيْتُهُمْ يَقْبَلُونَ عَلَيْهِ بِشْرَاهِةٍ وَنَهْمٍ وَبِلَاهَةٍ ، حَتَّى إِنْ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ كَانَ يَعْرِفُ
الطَّعَامَ بِكُلِّهَا يَدْنِيهِ لِيُشْعِ نَهْمَهُ . كُلُّ هَذَا كَانَ يَحْرِي عَلَى مَشْهَدِ مِنِّي . وَقَدْ
تَذَكَّرْتُ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ مَا كُنْتُ قَدْ سَمِعْتُهُ عَنْ هَؤُلَاءِ الرِّجَالِ الْبَشِيعِينَ الَّذِينَ
إِذَا وَقَعَ فِي أَيْدِيهِمْ نَاسٌ مِنْ بُلْدَانٍ أُخْرَى ، قَدَّمُوا لَهُمْ مِثْلَ هَذَا الطَّعَامِ الَّذِي
يَخْعَلُ أَكْلِيهِ يَقْبَلُونَ عَلَيْهِ بِشْرَاهِةٍ ، فَيَرْدَادُونَ سِمْمَةً بِشَكْلِ عَجِيبٍ . وَنَعْدَهَا
نَعْدَمُونَ وَخِصَّةً شَهِيَّةً لِلرِّجَالِ الْبَشِيعِينَ . وَلَمْ يَسْغِي إِلَّا أَنْ أَصْرَحَ فِيهِمْ ، طَالِبًا
مِنْهُمْ أَنْ يَتَوَقَّفُوا عَنِ الْأَكْلِ ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَسْتَحْيُوا لِدَعْوَتِي ، إِذْ كَانَ هَمُّهُمْ
الْوَحِيدُ خَشَوْ بَطُونِهِمْ ، وَلَا شَيْءَ سِوَاهُ .

الْفِرَارُ

أَخَذَ أَصْحَابِي يَزْدَادُونَ سِمْمَةً ، يَوْمًا بَعْدَ آخَرَ ، وَكَانَ الرِّجَالُ الْبَشِيعُونَ لَا
يُمَارِقُونَهُمْ ، وَلَا يَنْقُطَعُونَ عَنْ حَتِّهِمْ عَلَى تَنَاوُلِ الْمَرِيدِ مِنَ الطَّعَامِ . فِي الْوَقْتِ



أَخَذَ مِنَ الشَّعْبِ نَفْسَهُ الطَّرَافُ إِلَى رَجُلٍ هَرَبِلَ مِثْلِي . وَقَدْ يَسَّرَ ذَلِكَ سُلَّ السَّحَابَةِ
أَمَامِي ، عِنْدَمَا اخْتَبَأْتُ ذَاتَ يَوْمٍ تَحْتَ شَجَرَةٍ ، وَمِنْهَا سِرْتُ إِلَى الْغَايَةِ ،
حَيْثُ وَجَدْتُ نَعَصَ الْفَاكِهَةِ الَّتِي أُعْرِفُهَا ، وَالَّتِي لَا يُشْكَلُ تَنَاوُلُهَا حَطَرًا
وَأَفَادَتْنِي الْفَاكِهَةُ فِي اسْتِعَادَةِ قُوَّتِي ، فَاسْتَطَعْتُ الْإِسْرَاعَ فِي سِيرِي . وَقَدْ
قَضَيْتُ أَسْوَعًا ، أَسِيرُ مَرَّةً وَأَتَوَقَّفُ أُخْرَى لِتَنَاوُلِ الْفَاكِهَةِ وَشَرَبِ الْمَاءِ ، إِلَى
أَنْ لَقِيتُ حَمَاعَةً مِنَ الرِّجَالِ . وَعِنْدَمَا رَأَيْتُ أُولَئِكَ الرِّجَالِ أَسْرَعُوا إِلَيَّ ،
وَسَيِّفَهُمْ فِي أَيْدِيهِمْ ، فَصَرَخْتُ فِيهِمْ : « أَرْحُوكُمْ أَنْ تَسْتَجْعُوا إِلَيَّ . »
وَكَشَفْتُ لَهُمْ عَنْ هَوِيَّتِي وَخَدَّيْتُهُمْ عَنِ الْبَلَدِ الَّذِي قَدِمْتُ مِنْهُ .
وَأَخْبَرُونِي بِأَنْ مِنْ عَادَتِهِمْ أَنْ يَجِئُوا مَرَّةً كُلَّ عَامٍ إِلَى تِلْكَ الْجَزِيرَةِ وَلِكُنْهِمْ
يَخْشَوْنَ شَرَّ الرِّجَالِ الْبَشِيعِينَ .

سُرُجُ الْمَلِكِ

وَمِمَّا قَالُوهُ لِي : « لَمْ تُكْتَبِ السَّلَامَةُ لِأَخِي مِنْ قَبْلِكَ وَطُتْ قَدَمَاهُ أَرْضَ
هَذِهِ الْحَرِيرَةِ » وَاصْطَلَحُونِي مَعَهُمْ عِنْدَ غُذُوبَتِهِمْ إِلَى حَزِيرَتِهِمْ . وَقَدْ سَمِعَ
الْمَلِكُ حِكَايَتِي ، وَرَغِبَ فِي التَّحَدُّثِ إِلَيَّ . وَقَدْ كَانَ مِثَالًا لِلطَّبِيعَةِ وَكَرَمِ
الْخُلُقِ ، حَتَّى إِنَّهُ خَصَّصَ لِي عُرْفَةً فِي قَصْرِهِ الْفَخِيمِ . وَكَثِيرًا مَا كَانَ
يَسْتَدْعِينِي لِلِاسْتِمَاعِ إِلَى مُعَامِرَاتِي فِي رَحَلَاتِي ، وَأَحَادِيثِي عَنْ مَدِينَةِ بَغْدَادِ
الْعَظِيمَةِ . وَالْحَقُّ يُقَالُ إِنَّ عَاصِمَةَ مَمْلَكَتِهِ كَانَتْ عَامِرَةً بِأَهْلِهَا ، غَبِيَّةً فِي كُلِّ
بَاحِيَةٍ مِنْ تَوَاجِيي الْحَيَاةِ إِلَّا فِي شَيْءٍ وَاحِدٍ . فَقَدْ كَانَ النَّاسُ يَرْكَبُونَ الْخَيْلَ بِلا
سُرُوحَ ، مَعَ أَصَالَةِ تِلْكَ الْخَيُْولِ وَبِرَاعَةِ فُرْسَانِهَا .

الَّذِي كَانُوا يَرَوْنِي أَرْدَادًا هَرَالًا ، لِانْقِطَاعِي عَنِ الطَّعَامِ ، وَلَا يَحْمِلُونَ بِي ،
لِأَنَّ مَا عِنْدَهُمْ يَكْفِيهِمْ .

وَكَانَ الْأَلَمُ يَعْصِرُنِي ، وَأَنَا أَرَى مَا يَفْعَلُهُ أَصْحَابِي ، وَأَتَحَيَّلُ الْمَصِيرَ الَّذِي
يَتَطَرَّهُهُمْ . فَقُلْتُ لِنَفْسِي : « لَيْسَ لَدَيَّ مِنْ سَبِيلٍ إِلَى انْقَادِهِمْ ، وَلَكِنْ عَلَيَّ أَنْ
أُخَوِّ نَفْسِي ، لِأَنَّ نَقَائِي دُونَ طَعَامٍ يُعْجَلُ بِهِلاكِي . إِنَّ أَصْحَابِي لَمْ
يَسْتَطِيعُوا الْإِتِّعَادَ عَنِ الرِّجَالِ الْبَشِيعِينَ ، نَلَّ قُلُوبُهُمْ مَا كَانُوا يُرِيدُونَ ذَلِكَ ،
مَادَامَ الرِّجَالُ الْبَشِيعُونَ لَا يَنْقَطِعُونَ عَنْ وَضْعِ الطَّعَامِ أَمَامَهُمْ . وَلَمْ يُكْفِ

وَقَدْ سَأَلْتُ الْمَلِكَ يَوْمًا : « أَيُّهَا الْمَلِكُ الْعَظِيمُ ، لِمَ لَا تَسْتَعْمَلُ السَّرْحَ
عِنْدَ رُكُوبِكَ الْحِصَانِ ؟ »

دَهَشَ الْمَلِكُ وَسَأَلَنِي : « مَاذَا تَقُولُ ؟ مَا هُوَ السَّرْحُ الَّذِي تَتَخَدَّثُ
عَنَّهُ ؟ »

وَكَانَ جَوَابِي : « هَلْ تَأْدُرُ لِي يَا مُوَلَايَ أَنْ أَصْنَعَ لَكَ سَرْحًا ، إِذَا مَا
اسْتَعْمَلْتَهُ ، وَجَدْتَ فِيهِ الْخَوَابَ عَنْ سُؤَالِكَ ، وَلَمْ تَشَأْ عَظِيمَ هَوَائِدِهِ ؟ »
وَسَرَّعَانَ مَا صَنَعْتُ سَرْحًا فَاجِرًا ، وَوَضَعْتُهُ عَلَى ظَهْرِ حِصَابِهِ . وَبَعْدَ أَنْ
رَكِبْتُهُ سَرًّا بِالسَّرْحِ كَثِيرًا . وَانْهَالْتُ عَنِّي بَعْدَهَا طِبَابُ رِحَالِ حَاشِيَةِ الْمَلِكِ
وَعَلِيَّةِ الْقَوْمِ لِصَنْعِ السَّرُوحِ ، فَكَسَنْتُ الْأَمْوَالَ الْكَثِيرَةَ مِنْ صَاعَتِهَا ، عِلَاوَةً
عَلَى السَّعَادَةِ الَّتِي كُنْتُ أُحْسِنُ بِهَا لِلصَّدَاقَةِ الَّتِي كَانَتْ تُرْتِطِي بِالْمَلِكِ
وَرِجَالِهِ .

زَوَاجِي

ذَاتَ يَوْمٍ ، قَالَ لِي الْمَلِكُ : « لَقَدْ أَصْبَحْتُ وَاجِدًا مِنَّا ، ثَوْلِيكَ صَادِقَ
حُبِّنَا كَأَخٍ لَنَا . وَلَكِنَّ ثَمَّةَ شَيْئًا يُقَرِّبُكَ مِنَّا أَكْثَرَ . »
وَبِكُلِّ أَدَبٍ قُتِلْتُ لَهُ : « أَيُّهَا الْمَلِكُ الْعَظِيمُ ! أَمْرُكَ مُطَاعٌ ، وَلَنْ أُرَدُّ لَكَ
أَمْرًا . »

اَتَلَحَّثَ كَلِمَاتِي صَدْرَهُ ، فَاتَّسَمَ قَائِلًا : « عَلَيْكَ بِالزَّوْاجِ يَا بَنِي ! فَفِي

الْمَدِينَةِ فِتْنَةٌ عَلَى جَانِبِ كَثِيرٍ مِنَ الْخَمَالِ وَالْثَّرَاءِ ، وَهِيَ ابْنَةُ أَحَدِ أَصْدِقَائِي ،
وَهَآنَذَا أَدْعُوكَ إِلَى الْإِفْتِرَانِ بِهَا . »

وَسَرَّعَانَ مَا تَمَّتْ مَرَامِي الزَّوْاجِ ، وَرُقِيتُ الْعَرُوسُ إِلَيَّ . وَكَمَا قَالَ
الْمَلِكُ فَإِنْ زَوْجَتِي كَانَتْ ذَاتَ ثَرَوَةٍ وَجَمَالٍ ، وَكَانَتْ تَتَمَتَّعُ بِمَا هُوَ أَعْظَمُ
مِنْ ذَلِكَ ، فَقَدْ وَجَدْتُ فِيهَا مَا جَعَلَنِي أُحِبُّهَا وَتُحِبُّنِي . وَعِشْنَا فِي مُنْتَهَى
السَّعَادَةِ لِعِدَّةٍ أُسَابِغَ .

وَذَاتَ يَوْمٍ مَاتَتْ زَوْجَتِي أَحَدَ أَصْدِقَائِي ، فَذَهَبْتُ إِلَيْهِ مُعَزِّيًا ، عَمَلًا بِمَا
تَقْتَضِيهِ رَوَابِطُ الصَّدَاقَةِ سَاعَةَ الْحُزَنِ . وَلَكِنِّي وَجَدْتُهُ لَيْسَ حَزِينًا فَقَطْ ، بَلْ
مَرِيضًا . وَلَمَّا اقْتَرَبْتُ مِنْ فِرَاشِهِ ، حَاطَتْهُ بِقَوْلِي : « يَا صَدِيقِي ! إِنَّهَا إِرَادَةُ
اللَّهِ ، وَلَا يَحْسُنُ بِالْإِنْسَانِ أَنْ يَسْتَسْلِمَ إِلَى الْحُزَنِ ، إِذَا فَقَدَ زَوْجَتَهُ . وَمَا
عَيْنُكَ إِلَّا الصَّبْرُ ، وَتَعْوِذُ نَفْسِكَ عَلَى الْغَيْشِ بِدُونِهَا . »

كَهْفُ الْمَوْتَى

كَانَتْ مُعَاجَاةً لِي عِنْدَ مَا رَدُّ عَنِّي قَائِلًا : « مَاذَا تَقُولُ يَا صَاحِبِي ؟ أَلَا تَعْرِفُ
الْمَسْرُورَ الَّذِي يَحْكُمُنَا فِي هَذَا الْبَلَدِ ، وَالَّذِي يَقْضِي بِأَنْ يُدْفَنَ الْحَيُّ مَعَ
أَمِيَّتٍ ؟ فَالزُّوْحَةُ إِذَا مَاتَ رُوحُهَا ، دُفِنَتْ مَعَهُ حَيَّةً ، كَمَا أَنَّ الزُّوْحَ إِذَا مَاتَتْ
رُوحَتُهُ ، دُفِنَ مَعَهَا حَيًّا . اْعْلَمْ يَا أَحِي ، إِنَّهُمْ سَيُلْقَوْنَ بِي بَعْدَ طَهْرِ هَذَا
الْيَوْمِ ، فِي كَهْفِ الْمَوْتَى إِلَى أَنْ أَمُوتَ . »

وَبَعْدَ طَهْرِ ذَلِكَ الْيَوْمِ ، حُمِلَ جُثْمَانُ الزُّوْحَةِ حَارِخَ الْمَدِينَةِ ، إِلَى مَكَارِ

في جانب الجبل ، وأزاحوا صخرة كبيرة عن مدخل الكهف ، وألقوا
بالخضمان فيه . ثم جاءوا بالجبال واستخدموها في إنزال صديقي في كهف
الموتى ، إلى جانب زوجته ، ثم أعادوا الصخرة إلى مكانها . وكان الخمود
يتمعون من يحاول الاقترب من الكهف . ولما سألت الميك عن ذلك
أجابني : « إنها عادة قديمة متوارثة ، ولا أستطيع إلعاءها . »

في كهف الموتى

لم يمض على زواحي السعيد سوى بضعة أسابيع ، حتى مرصت زوجته
فترة ثم ماتت . وحصر القوم لنقل خضمانها إلى كهف الموتى ، فقلت لهم :
« لن تأخذوني معها إلى القبر ، لأنني لست من نبدكم ، ولا ينطق علي
قانونكم . » غير أنهم أخذوا يواسوني في مصابي وطلبوا إليّ التحلي
بالشجاعة ، وأبلغوني أنه لا ندد أن الحق بروحي لأنني صيرت - في
نظريهم - واحدًا منهم .

لم أشعر إلا وقد لقوا الجبال حول جسدي ، وحملوني إلى الكهف .
وهناك خلصوني من القيود ، وأرغموني على الترول إلى الكهف باستخدام
الجبال . وسدوا بابه بالصخرة ، فلم أجد أرى شيئًا داخل الكهف . وبعد
قليل لاح لي شعاع ضئيل من الثور ، وتبين لي أنهم كانوا يذهبون مع الموتى
حواضرهم وخبيثهم . واستطعت أن أميز الكثير من الجبال التي كانت
تستعمل في إنزال من يُدفنون أحياء .



فَجَاءَتْ سَمِيعَتْ خَزَكَةَ فِي الْكَهْفِ ، وَرَأَيْتُ حَيَوَانًا يُشَبِّهُ الثَّعْلَبَ . وَلَمَّا
حَاوَلْتُ الْإِمْسَاكَ بِهِ غَضَّ يَدِي وَأَقَمْتُ مِثِّي هَارِبًا . وَدَعَانِي هَذَا الْخَادَثُ إِلَى
التَّفْكِيرِ : « إِنَّ وُجُودَ الْحَيَوَانَاتِ دَلِيلٌ عَلَى وُجُودِ فَتْحَةٍ تَدْخُلُ مِنْهَا إِلَى
الْكَهْفِ . وَعَلَيَّ أَنْ أَجْعَلَ مِنْهَا دَلِيلًا فِي الْخُرُوجِ مِنْهُ . »

جُحْرُ الثَّعْلَبِ

حَاوَلْتُ أَنْ أُرْمِيَ خَبَلًا خَوْلَ أَحَدِ هَذِهِ الْحَيَوَانَاتِ ، وَلَكِنِّي لَمْ أَفْلَحْ ؛
فَكَرَّرْتُ الْمُحَاوَلَةَ عَشْرَاتِ الْمَرَّاتِ . وَأَخِيرًا رَمَيْتُ الْخَبْلَ فَاتَّصَفَ خَوْلَ
أَحَدِهَا فَحَرَى ، وَتَبِعْتُهُ وَالْخَبْلُ فِي يَدِي ، إِلَى بَهَايَةِ الْكَهْفِ ، حَتَّى وَحَدَثَ
فَتْحَةٌ يَسْتَطِيعُ ثَعْلَبٌ أَنْ يَمُرَّ مِنْهَا ، وَلَكِنْ تَعَذَّرَ عَلَيَّ ذَلِكَ .

وَحَدَثَ فِي تَوْسِعِ الْفَتْحَةِ ، وَاسْتَعْرِقَ ذَلِكَ مِثِّي وَقَدْ طَوَيْلًا ، وَبَحِثْتُ فِي
الْخُرُوجِ خَيْثُ أَهْوَاءِ الطَّلُقِ وَالسَّمَاءِ الصَّافِيَةِ . وَوَحَدَثَ بَعْضِي قَرِيبًا مِنَ
الْبَحْرِ اسْتَقْلَ حُرُوفَ صَخْرِي عَابٍ لَا يُمَكِّنُ نَسَقَهُ صُعُودًا أَوْ نُزُولًا . ثُمَّ
وَحَدَثَ أَمَاءٌ فِي أَحَدِ الشُّهْبَرَاتِ ، وَشَجَرَةٌ فَاكِهِةٌ ، فَأَكَلْتُ وَشَرَنْتُ ،
وَجَسَنْتُ طَلَبًا لِلرَّاحَةِ .

خَلَسْتُ أَفْكَرُ : « عَلَيَّ بِالْإِنِّظَارِ إِلَى حَيْثُ قُدُومِ سَمِيعَةٍ لَا تَكُونُ وَخَهْنُهَا
الْمَدِينَةُ الَّتِي كُنْتُ فِيهَا ، مَا دَامَ الطَّعَامُ وَأَمَاءٌ مُتَوَقَّرِينَ . أَيْخَسُّ لِي أَنْ أَعُودَ
إِلَى كَهْفِ الْمَوْتَى لِأُخْرِجَ بَعْضَ الْخَوَاهِرِ ؟ وَلَكِنْ إِذَا عُدْتُ فَهَلْ أَسْتَطِيعُ أَنْ
أُسْتَدِلَّ عَلَى طَرِيقِ الْخُرُوجِ ؟ »

الْجَوَاهِرُ وَالسَّفِينَةُ

تَذَكَّرْتُ الْجِبَالَ فَقُلْتُ لِنَفْسِي : « لَوْ صَنَعْتُ خَبَلًا طَوِيلًا مِنْ هَذِهِ الْجِبَالِ
الْقَصِيرَةِ ، فَسَيَسَاعِدُنِي فِي الدُّخُولِ إِلَى الْكَهْفِ وَالْخُرُوجِ مِنْهُ . » وَعَلَى الْمَوْرِ
صَنَعْتُ الْخَبْلَ ، وَدَخَلْتُ الْكَهْفَ عِدَّةَ مَرَّاتٍ ، وَأَخْرَجْتُ آلاَفَ الْجَوَاهِرِ
، وَصَنَعْتُهَا فِي أَكْيَاسٍ صَنَعْتُهَا مِنْ الْقَمَاشِ الَّذِي كَانَ مَلْفُوفًا خَوْلَ أَحْسَادِ
الْمَوْتَى . وَبَقِيتُ فِي الْإِنِّظَارِ سَفِينَةٍ تَمُرُّ .

وَجَاءَ الْفَرْجُ ، عِنْدَمَا رَسَتْ سَفِينَةٌ لِتَتَرَوَّدَ بِأَمَاءٍ . وَرَوَيْتُ لِلرُّبَابِ بَعْضَ مَا
حَدَّثَ لِي ، دُونَ أَنْ أُعْرَضَ لِقِصَّتِي فِي الْمَدِينَةِ نَحْشِيَةً أَنْ يَكُونَ بَيْنَ الرُّكَّابِ
أَحَدٌ مِنْ سُكَّانِهَا . وَقَدَّمْتُ بَعْضَ الْجَوَاهِرِ هَدِيَّةً إِلَى الرُّبَابِ ، فاعْتَذَرَ عَنْ عَدَمِ
مَوْلَاهَا قَائِلًا : « إِنَّمَا نَحْنُ أَبْنَاءُ الْبَصْرَةِ إِذَا وَحَدَا مِنْ قَدَفَتْ بِهِ الرِّيحُ أَوْ التَّحَرُّ
عَنِ آيَةِ خَرِيرَةٍ ، حَمَلْنَاهُ عَلَى سُنْفٍ وَقَدَّمْنَا لَهُ الطَّعَامَ وَالْمَاءَ وَالْكِسَاءَ . وَلَا
نَحُلْ عَلَيْهِ نَتُوصِيهِ إِلَى بَلَدِهِ . وَلَيْسَ مِنْ شَيْعِنَا أَنْ نَتَقَاضِيَ أَجْرًا ، أَيَّا كَانَ ،
مِنْ أَحَدٍ . وَكُلُّ مَا نَعْمُهُ لَيْسَ إِلَّا فِي سَبِيلِ اللَّهِ . »

نَهَايَةُ الرُّحْلَةِ الرَّابِعَةِ

بَعَثَ السَّفِينَةُ بِمَاءِ الْبَصْرَةِ فِي الْوَقْتِ الْمُحَدَّدِ لَهَا ، فَعَادَرْتُهَا إِلَى بَغْدَادَ ،
فَدَفَعَ بِي أَهْلِي وَأَصْدِقَائِي . وَتَصَدَّقْتُ بِالْمَالِ وَالْثِيَابِ وَالطَّعَامِ عَلَى
الْفُقَرَاءِ ، وَقَدَّمْتُ الْقَوْنَ لِلْمُحْتَاجِينَ .

عُدْتُ وَقْتُ : « لَنْ أَغَادِرَ مَدِينَتِي بَعْدَ آلآن ، وَسَتَكُونُ هَذِهِ آخِرَ رَحْلَةٍ
لِي فِي دُنْيَايَ . »

وَلَكِنِّي نَقَصْتُ الْعَهْدَ ، وَلَمْ أَتَزِمْ بِمَا وَعَدْتُ ، وَلِي حَدِيثٌ مَعَكُمْ أَيُّهَا
الْأَصْدِقَاءُ ، غَدَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

الرَّحْلَةُ الْخَامِسَةُ

تَذَكَّرْتُ ، فِي حِينِهِ ، مَحَاسِنَ رَحْلَاتِي ، وَلَمْ أَتَذَكَّرْ مَسَاوِيئَهَا .

فَهِيَ يَوْمَ مِنَ الْأَيَّامِ ، رَأَيْتُ حَمَاعَةً يَسُورُ سَفِينَةً كَبِيرَةً ، وَاشْتَرَيْتُهَا مِنْهُمْ ،
وَأَنْحَرْتُ عَلَيْهَا ، وَمَعِيَ بَعْضُ التُّخَّارِ ، فِي رَحْلَتِي الْخَامِسَةِ . وَقَدْ تَنَقَّلْنَا مِنْ
بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ ، وَمِنْ حَرِيرَةٍ إِلَى أُخْرَى سَبْعَ وَنَشْتَرِي وَنُمَتِّعُ أَغْنَسَا بجمال
الطَّيْبَةِ

وَفِي أَحَدِ الْأَيَّامِ ، رَسْتُ مَا السَّفِينَةُ عَلَى حَرِيرَةٍ كَبِيرَةٍ ، لَمْ تُشَاهَدْ فِيهَا
بِنْسَانًا أَوْ حَيَوَانًا أَوْ سَائًا . وَبَرَلَ التُّخَّارُ إِلَى الْيَابِسَةِ لِيُحْوَلُوا فِي الْحَرِيرَةِ .
وَبَيْنَمَا هُمْ يَحْوَلُونَ ، تَوَقَّفُوا عِنْدَ شَيْءٍ صَخِيمٍ ، أُنِصِرَ اللَّوْنُ ، شَدِيدَ الشَّبَهِ
بِالنَّقَةِ فَصَرَخَتْ فِيهِمْ أَلَا بِمَسُوا ذَلِكَ الشَّيْءَ ، لِأَنَّهُ بَيْضَةُ رُحٍّ . وَنَصَحَتْهُمْ
بِالْإِتِّعَادِ عَنْهَا قَبْلَ فَوَاتِ الْأَوَانِ .

وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَسْتَمِعُوا إِلَى نُصْحِي ، بَلْ أَخَذُوا يُحَدِّثُونَ بَهَا ثَقْنًا ، لِيَعْرِفُوا
مَا بَدَا لَهَا ؛ وَإِذَا بِصَوْتٍ كَالنُّكَاءِ يَسْعَتُ مِنْ دَاخِلِ الْبَيْضَةِ . كَانَ فَرْحُ الرُّحِّ
بِلَفْظِ أَنْفَاسِهِ الْأَحْيَةِ . وَمِنْ أَعَالِي الْحَوِّ سَمِعَ صُرَاحٌ رَدًّا عَلَى صُرَاحِ فَرْحِ
الرُّحِّ وَانْقَلَبَ الشَّهَارُ إِلَى لَيْلٍ ، حِينَمَا حَامَ فِي الْحَوِّ رُحٌّ صَخِيمٌ وَرَفِيقَتُهُ ،
فَوَقَعَتْ هَلَاكًا خَمِيْعًا ، وَلَكِنَّهُمَا طَارَا نَعِيدًا . وَفِي الْحَارِ ، طَلَبْتُ مِنَ التُّخَّارِ
الْعُودَةَ بِأَقْصَى سُرْعَةٍ ، لِنُتَجِرَ نَعِيدًا عَنِ الْحَرِيرَةِ وَنُحَوِّ نَافْسَنَا .

سَمِيتِي تَحْطُمُ

اسْتَمَعَ الشَّخَرُ إِلَى صَاحِبِي ، وَقَعَتْ بِهَا السَّفِينَةُ إِلَى غَرْصِ الشَّخَرِ وَقَدْ حَصَرَ بِأَيِّ أَنْ أَسْأَلَ نَفْسِي : « هَلْ سَنَقِلْتُ مِنْهُمَا ؟ » وَقَبْلَ أَنْ أَيْمَ سَوَالِي ، شَاهِدْنَا الرَّحَى يَعُودَانِ ، يَحْمِلُ الْوَاحِدُ مِنْهُمَا صَخْرَةً كَبِيرَةً بِحَجْمِ الْبَيْتِ ، وَمَا هِيَ إِلَّا لِحَطَاتٍ ، حَتَّى أَحْدَرُ رُحَّ يَحُومُ فَوْقَهَا ، ثُمَّ أَتَى بِالصَّخْرَةِ عَيْنَا ، وَلَكِنَّ الرُّبَانَ اسْتَصَاعَ أَنْ يَتِمَادَها ، فَسَقَطَتْ فِي الْبَحْرِ ، وَارْتَفَعَتْ مِائَةً ، وَكَانَتْهَا تَحِيَالٌ ، وَأَحْدَثَ تَقْدُفٌ بِالسَّفِينَةِ هَذَا وَهَذَا .

لَمْ يَسْتَطِعِ الرُّبَانُ أَنْ يَتِمَادِيَ الصَّخْرَةَ الثَّانِيَةَ الَّتِي سَقَطَتْ عَلَى السَّفِينَةِ ، فَكَبِتِ السَّفِينَةُ لِأَحِيرٍ مِنْ حَيَاةِ سَمِيتِي الْحَدِيدَةِ . وَقَدْ لَقِيَ مُعْظَمُ الشَّخَرِ وَالصَّخْرَةَ حَتْمَهُ . وَكُلُّ مَا أَذْكُرُهُ نَبِيٍّ وَحَدَّثَ نَفْسِي فِي صِرَاحٍ مَعَ الْبَحْرِ ، لَمْ يُقَدِّدْنِي مِنْهُ إِلَّا لَوْحٌ خَشَبِيٍّ مِنْ حُطَامِ السَّفِينَةِ كَانَ طَافِيًا عَلَى مَقَرَّةٍ مِنِّْي ، فَتَشَبَّهْتُ بِهِ .

كَانَ بِهَذَا الْلَوْحِ الْحَشَشِيُّ الْمَضْطُّ فِي إِتْقَادِي ، وَحَاصَّةً عِنْدَ دَفْعِي الرِّيحَ وَالْأَمْوَاحَ إِلَى شَاطِئِ خَرِيرَةٍ بَنَعَهُ نَعْدَ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ بِنْيَالِهَا . وَحَمَدْتُ اللَّهَ عِنْدَمَا وَجَدْتُ جَدُونَ مَاءٍ عَذْبٍ ، وَأَشْجَارَ فَاكِهِةٍ . وَتَسَرَّعْتُ أَقْطِفُ الثَّمَارَ وَأَكُلُهَا ، وَأَعْبُ مِنْ مَاءِ النَّهْرِ .

شَيْخُ الْبَحْرِ

سَرْتُ أَتَحَثُّ فِي الْخَرِيرَةِ ، لَعَلِّي أَحَدٌ تَشَرُّهُ يُقِيمُونَ فِيهَا . وَلَمْ يَطَّلْ بِي النَّسِيرُ ، إِذْ رَأَيْتُ عَجُورًا يَدَا لِي مَرِيضًا وَاهِبًا . عِنْدَهَا قُلْتُ لِنَفْسِي : « تُرَى أَنْ يَكُونَ هَذَا الْعَجُورُ نَحَارًا تَحْطُمْتُ سَمِيتُهُ ، وَقَدَفْتُ بِهِ الْأَمْوَاحَ إِلَى هَذِهِ الْخَرِيرَةِ ؟ »

كَانَ الْعَجُورُ يَخْلُسُ عَلَى مَقَرَّةٍ مِنْ جَدُولِ الْمَاءِ . وَلَمَّا اقْتَرَنْتُ مِنْهُ ، حَيَّيْتُهُ . لَكِنَّهُ لَمْ يَنْصُقْ بِكَلِمَةٍ . وَكَلَمَتُهُ ثَانِيَةً ، فَاتَّزَمَ الصَّمْتَ ، وَانْكَفَى تَحْرِيكَ يَدَيْهِ نَاحِيَةَ جَدُولِ الْمَاءِ . وَقَدْ طَشْتُ أَنَّهُ يُرِيدُنِي أَنْ أَغْرِبَهُ بِالْجَدُولِ إِلَى الصَّفَةِ الْأُخْرَى ، فَحَمَمْتُهُ عَلَى ظَهْرِي ، اسْتَعْدَادًا لِاخْتِيَارِ الْمَاءِ . لَكِنَّهُ فُجْأَةً أَحَاطَ عُقْفِي بِسَاقِيهِ الْكَثِيرِينَ كَانَتْ - عَلَى الرَّغْمِ مِنْ هُرَايِلِهِمَا - صُنُتَيْنِ قَوِيَّتَيْنِ

وَلَمَّا حَاوَلْتُ إِنْزَالَهُ ، رَكَبَنِي بِقَدَمِهِ ، وَشَدَّ عَلَى عُقْفِي بِيَدَيْهِ وَسَاقِيهِ حَتَّى هَدَّ بِغَضْرُهَا ، وَارْتَسَمَ شَيْخُ الْمَوْتِ أَمَامَ عَيْنِي . وَقَدْ بَقِيْتُ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ أَمَامًا . وَكُنْتُ فِي الْبَيْلِ أَمَامًا عَلَى الْأَرْضِ وَسَاقَاهُ حَوْلَ عُقْفِي ، وَفِي النَّهَارِ مَا كُنْتُ أَسْأَلُ فَاكِهِةً أَوْ أَشْرُثَ مَاءً إِلَّا حَسَبَ مَشِيئَتِهِ . وَلَمْ يُكَلِّمْنِي قَطُّ ، بَلْ كَانَ يَمْتَدُّ إِلَى رَكَبِي بِقَدَمِهِ لِأَفْعَلَ مَا يُرِيدُهُ مِنِّي .

وَدَاثَ يَوْمٍ ، وَجَدْتُ فَاكِهِةً مُخَدَّرَةً كُنْتُ قَدْ سَمِعْتُ عَنْهَا فِي بَعْضِ أَسْمَائِي . فَتَنَاوَلْتُ ثَمَرَةً وَتَطَاهَرْتُ بِأَيِّ أَكُلَ مِنْهَا . ثُمَّ رُحْتُ أَمَامَ قَرَحَاءَ ، أَوْ : « مَا أَخْبَى هَذِهِ الثَّمَرَةُ ! آه لَوْ أَكُلَ مِنْهَا الْكَثِيرَ ! » وَلَمَّا سَمِعَنِي

الْعَجُوزُ ، رَكَلَتِي بِقَدَمِهِ ، وَأَشَارَ إِلَى الْفَاكِهَةِ ، فَأَعْطَيْتُهُ مِنْهَا . وَلَمَّا
اسْتَحْسَسَ مِدْقَهَا ، أَحَدَ يَأْكُلُ مِنْهَا شَرِبَهُ إِلَى أَنْ تَرَاخَتْ سَاقَاهُ مِنْ خَوَرِ
عُنْقِي ، وَقَفَّ وَغَيَّ . عِنْدَيْدِ الْفَيْتِ بِهِ أَرْضًا ، وَذَقْتُ رَأْسَهُ بِخَجَرٍ .

سِيرْتُ إِلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ حَيْثُ وَحَدْتُ سَمِيَةً ، ثَرَلُ بَعْضُ بَحَارَتِهَا
لِيَرُودُوا بِالمَاءِ الْعَذْبِ . وَلَمَّا رَوَيْتُ لَهُمْ مَا حَدَّثَ لِي ، قَالُوا : « إِنَّ الْعَجُوزَ
الَّذِي رَأَيْتَهُ ، هُوَ شَيْخُ الْبَحْرِ . وَمَا مِنْ أَحَدٍ قَدْتُ ، لَفَ الشَّيْخُ سَاقَيْهِ خَوَرِ
عُنْقِهِ ، إِلَّا مَاتَ . لَقَدْ قَضَى عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْبَحَّارَةِ بِمَفْسِ الطَّرِيقَةِ وَفِي كُلِّ
مَرَّةٍ يَقْصِدُ الْحَرِيرَةَ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مَعَ تِسْعَةٍ أَوْ عَشْرَةٍ مِنَ الْبَحَّارَةِ لِيُخَوِّفَهَا مِنْ
شَيْخِ الْبَحْرِ . »

سَأَلْتُهُمْ : « لِمَاذَا إِذَا تُجِيبُونَ إِلَى هَذِهِ الْجَزِيرَةِ ؟ »

أَجَابُونِي : « بَحْيٌ لِنَحْمَعَ ثَمَارَ حُورِ الْهِنْدِ . ثَعَالُ مَعَا وَمَعَكَ أَكْيَاسٌ
كَبِيرَةٌ لِحُورِ الْهِنْدِ ، وَكَيْسٌ صَغِيرٌ مَمْلُوءٌ بِالْحِجَارَةِ الصَّعِيرَةِ . »

الْقُرُودُ وَجُورُ الْهِنْدِ

أَحَدْتُ مَعِيَ مَا طَسَوَهُ مِنِّي ، وَسِيرْنَا إِلَى عَابَةِ مِنْ أَشْجَارِ حُورِ الْهِنْدِ ، وَهِيَ
أَشْجَارٌ شَدِيدَةُ الْإِرْتِمَاعِ ، مَمْسَاءُ الْجُدُوعِ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ تَسْلُقَهَا ، وَخَمِيعُ
ثَمَارِهَا فِي أَعْلَاهَا حَيْثُ تَرَى الْقُرُودَ .

بَدَأْنَا نَرْحُمُ الْقُرُودَ بِالْحِجَارَةِ ، فَأَغْثَاظَتْ وَأَحَدْتُ ثَقِيدًا بِثَمَارِ حُورِ



الهند . وَتَحْمَعَتْ نَدِيًّا كَمِيَّةً كَثِيرَةً فِي وَقْتٍ لَيْسَ طَوِيلٍ ، وَأُحْدَا تَبْرُعُ قُشُورَهَا ، وَتَمْلَأُ بِالثَّمَارِ أَكْيَاسًا . وَعِنْدَمَا أُحْدَتْ السَّيْفَةُ حُمُولَتَهَا ، أَتَحَرَّتْ مَا إِنْ حُرِّرَ الْقُمْرُ وَالْحُرُورُ الْقَرِيبَةُ مِنْهَا ، حَيْثُ بَعَا مَا مَعَهَا شَمِي مُرْتَفِعٍ ، وَاشْتَرَيْنَا بِالثَّمَنِ أَخْشَابًا وَأَشْيَاءَ أُخْرَى غَيْرَهَا حَمَلْنَاهَا إِلَى الْبَصْرَةِ .

وَقَدْ عُدْتُ مِنْ رِخْتِي هَذِهِ ، إِلَى وَطَنِي ، أَكْثَرَ ثَرَاءٍ مِمَّا كُنْتُ قَبْلَ قِيَامِي بِهِذِهِ الرِّحْلَةِ . وَفِي بَغْدَادَ ، تَصَدَّقْتُ عَلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمُحْتَاجِينَ وَقَطَعْتُ عَلَى نَفْسِي عَهْدًا أَلَّا أَعُودَ إِلَى الْبَحْرِ . وَلَكِنِّي عُدْتُ فَأَخْلَفْتُ أَوَّعَدَ ، وَمَا حَذُّكُمْ غَدًا ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، عَمَّا فَعَلْتُ .

الرَّحْلَةُ السَّادِسَةُ

لَمَّا تَكُنْتُ فِي رَعْنَةٍ فِي مُعَاوَدَةِ رُكُوبِ السَّحَرِ ، وَكُنْتُ رَعْنَتِي الشَّدِيدَةِ فِي مُشَاهَدَةِ بَعْضِ نُدَّاءِ الْهِنْدِ ، حَمَشَتِي عَلَى عَذَمِ الْأَثَرِ بِمَا وَعَدْتُ . وَلَمَّا بَلَغْتُ الْإِيَّامَ ، حَتَّى خَهَرْتُ نَفْسِي لِلسَّفَرِ ، فَاشْتَرَيْتُ حَاحَتِي مِنْ تَصَانِعِ ، وَاصْطَفَحْتُ بَعْضَ الْخَدَمِ لِمُسَاعَدَتِي فِي رِخْتِي . وَاصْطَقَبْتُ أَقْدَمَةَ بَرٍّ ، وَزَرًّا كَثْرِيَّاتِ الْمُدُنِ ، حَيْثُ كُنْتُ أُبِيعُ فِيهَا وَأُشْتَرَى . وَوَصَلْنَا سِيرًا حَتَّى لَبَعْنَا مَصَّتَ نَهْرِ عَاجِزِ الْعَصِيهِ ، حَيْثُ وَحَدْتُ سَفِينَةَ نُوشَتُ عَلَى لَقِيهِ رِخْلِهِ طَوِيلِهِ إِلَى تَحْنُوبِ وَالشَّرْقِ .

كَانَتْ نَدَتْ الرِّحْلَةَ تَصَوُّبَةً مَسْئُومَةً فَقَدْ هَتَّتْ عَلَيْنَا رِيحٌ عَاصِفَةٌ ، وَتَحَرَفَتِ السَّيْفَةُ عَنْ مَسَارِهَا وَتَهَامَتْ فِي عُرْصِ السَّحَرِ ، وَاصْطَحَتْ تَحْتَ رَحْمَةِ الرِّيحِ ، تَسُوقًا أَمَامَهَا ، كَمَا يَسُوقُ تَرَعِي قَضِيعَ نَحْمٍ ، وَبِأَقْصَى سُرْعَةٍ

وَلَمَّا بَنِمَاثُ الرُّنَانِ نَفْسَهُ حِينَ أَحَدُ بَصْرُحٍ قَائِلًا : « إِنَّمَا مَبْتُولٌ لَا مَحَالَةَ » ثُمَّ انْتَرَعَ عِمَامَتَهُ مِنْ فَوْقِ رَأْسِهِ ، وَالتَّقَى بِهَا أَرْضًا ، وَأَحَدٌ يَصْرُبُ لِسَهُ بِكُنْهٍ بَدِيهِ ، وَسَاءَهُ لَا يَنْصَحُ يَقُولُ : « إِنَّهَا يَهَابُثُنَا ! هَلْ تَرَوْنَ ذَلِكَ أَحَدٌ السَّاهِقُ ؟ » إِنْ فِيهِ كَهْفٌ يَنْسُجُ مِيَاهَ السَّحَرِ بِمَا فِيهَا مِنْ سَفْنٍ . وَلَمْ يَقْدِرْ بِإِنْسَانٍ - حَتَّى آلَانَ - أَنْ يَخْرُجَ مِنْهُ حَيًّا .

الإنسياق إلى الكهف

حاول السحارة أن يخرجوا بالسفينة من بين الأمواج المتلاطمة ؛ ولكنهم
تحققوا وسرعان ما أخذت سفينتنا تقترب من الكهف ، ومياه البحر تتدفق
في جوفه ، ويسرعة مترايدة . وما هي إلا دقائق معدودة ، حتى ارتطمت
السفينة بحذر به الصخرية ، وتخطمت تماما . واستود كل شيء حولنا .
أخذت أخذت نفسي قائلا : « إما أني قد مت فعلا أو أني مشرف على
الموت . »

كنت في ظلام دامس ، لا أرى ما يدور حولي ، لأن كل شيء كان أشد
سوادا من الليل البهيم . لكني كنت أسمع صوت ماء يخرى خريا سريعا ،
وأسمع رياحا نهت . وهائذا أتحرك فوق جسم صلب ، وليس في الماء . إذا
أين أنا ؟ لقد أصبحت الدنيا ظلاما في ظلام ، وطالت رحلتي في ذلك
المكان السفلي الأسود . واستسلمت لنوم عميق .

سرنديب

لم أستيقظ إلا على أصوات تصيح وتصرخ حولي . ولما فتحت عيني ،
وجدت نفسي راقدا على ظهري فوق لوح من الخشب ، عند ضفة نهر
عظيم ، وحولي جمع من الناس ينظرون إلي بدهشة ، وكانوا هم مصدر
الصراخ الذي أيقظني .

سألت الواقفين : « أين أنا ؟ » إلا أنهم لم يحسوا عن سؤالي لجهدهم
اللغة العربية . وفي الحال أرسلوا يطلعون رجلا يعرف العربية بقصر الشيء .
وحال وصوله أتاني بأني في بلاد ملك سرنديب (سريلانكا) فحدثت الله
على أني في بلد مدب عظيم ، سمعت عنه وعن بلده الشيء الكثير .

أصاف الرجل قائلا : « نحيء إلى هذا المكان لتحويل قنوات الري من
هذا النهر إلى مزارعنا . ويتبع النهر من سلسلة الجبال تلك . وحتى هذه
اللحظة لم يتسر لأي إنسان من هنا أن يصعد تلك الجبال ، كما لم يحسن
أحد من قسم تلك الجبال . وآلان ، قل لي : كيف وصلت إلى هذا
المكان ؟ »

إلى الملك

رويت له قصة رحلتي السادسة ، وقام هو بترجمتها إلى الحاضرين ،
وكانت عيونهم مشتة علي . وما إن وصل إلى نهايتها ، حتى علا صراخهم ،
ورددوا كلمات لم أفهمها ، ترجمها لي الرجل كالتالي : « عليك أن تقص
حكايك على الملك ، وستأخذك إليه في الحال . » ثم قدموا لي الطعام
والماء ، وأركبوني جواذا . وبعد مسيرة ثلاثة أيام ، بلغنا العاصمة . وقد
استقبلني الملك في القاعة الملكية ، ورحب بي ، وأصغى باهتمام إلى
قصتي . ثم أمر الخدم بتخصيص خجرة لي تجاور القاعة الملكية ،
وتزويدي بأفضل الثياب ، وتقديم أشهى المأكولات ، وتوفير ما أحتاج

إِيَّاهُ وَكَانَ يَسْتَدْعِيهِ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ ، لِيَسْتَمَعَ إِلَى أَخْذَاتِ رِخْلَاتِي أَلَسْتُ ،
وَمَا رَافِقَهَا مِنْ أَهْوَالٍ وَمَحَاطَرٍ . وَلَمْ يَعْثُ عَنْ بَالِهِ أَنْ يَسْأَلَنِي عَنْ بَعْدَادٍ ،
فَحَدَّثْتُهُ عَنْهَا بِإِعَاصِيَةٍ .

رِسَالَةٌ مِنَ الْمَلِكِ

دَاتِ يَوْمٍ ، عَلِمْتُ بِوُصُولِ سَمِيَّةٍ إِلَى الْعَاصِمَةِ ، وَهِيَ فِي طَرِيقِهَا إِلَى
الْبَصْرَةِ ، فَادُّرَ لِي الْمَسْكُ أَنْ أُرْكِبَهَا وَمَسَحِي الْهَدِيَا الثَّمِيَّةَ مِنْ ذَهَبٍ
وَمَاسٍ وَحَوْهَرٍ وَغَيْرِهَا ، وَسَلَّمَنِي رِسَالَةً مَدَكِيَّةً وَهَدَايَا ثَمِيَّةً إِلَى أَمِيرِ
الْمُؤْمِنِينَ ، الْخَلِيفَةِ هَارُونَ الرَّشِيدِ . وَكَانَ عُنْوَانُ الرِّسَالَةِ الْمَلَكِيَّةُ :

« مِنْ مَلِكِ سَرَنْدِيبٍ ، وَمَدَكُ خُرَّرِ الْهِنْدِ الشَّرْقِيَّةِ ، وَالْمَلِكِ الْأَكْبَرِ ، إِلَى
أَخِيهِ الْخَلِيفَةِ هَارُونَ الرَّشِيدِ الْعَظِيمِ . »

وَكَانَتْ هَدَايَاهُ إِلَى الْخَلِيفَةِ مِنْ الذَّهَبِ وَالْحَوْاهِرِ ، وَأَشْيَاءَ أُخْرَى فَائِقَةَ
الْحِمَالِ ، حَيَّاءَ بِهَا مِنْ غَابَاتِ سَرَنْدِيبٍ وَمَرَارِعِهَا ، لَمْ تَرَ الْعَيْنُ مِثْلًا لَهَا فِي
أَسْوَاقِ بَعْدَادٍ .

وَكَانَتْ رِخْتِي إِلَى النَّصْرَةِ مُنْتَعَةً ، حَاصَّةً وَنَا أُحْمَلُ رِسَالَةً مَلَكِيَّةً وَهَدَايَا
إِلَى الْخَلِيفَةِ هَارُونَ الرَّشِيدِ ، الَّذِي أَحْسَنَ اسْتِقْبَالِي ، وَاسْتَمَعَ إِلَى جِكَايَتِي ،
وَتَلَطَّفَ فِي الْحَدِيثِ مَعِي .

الرَّحْلَةُ السَّابِعَةُ

مَا كُنْتُ أَتَوِي الْقِيَامَ بِأَيَّةِ رَحْلَةٍ أُخْرَى ، أَيُّهَا الْأَصْدِقَاءُ . وَلَا تَسْأَلُوا أَنْ
نَعْدُمَ السَّرَّ بِدَعْوِي إِلَى قِصَاءِ مَا تَبَقِيَ مِنَ الْعُمْرِ فِي وَطَنِي ، بَيْنَ أَهْلِي وَأَجْيَانِي ،
وَالْعَيْشِ فِي بَيْتِي وَبَيْنَ حَدَائِقِي فِي مُنْتَهَى السَّعَادَةِ .

وَفِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ ، وَأَنَا مَعَ أَصْدِقَائِي ، بَعَثَ إِلَيَّ الْخَلِيفَةُ هَارُونَ الرَّشِيدُ
يَسْتَدْعِيهِ . وَلَمَّا مَثَلْتُ أَمَامَهُ ، قَالَ لِي : « أُرِيدُكَ أَنْ تُحْمَلَ حَوَائِي وَهَدَايَايَ
إِلَى مَلِكِ سَرَنْدِيبٍ . » فَأَحْبَبْتُ . « لَكَ مَنِي السَّمْعُ وَالصَّاعَةُ ، يَا أَمِيرَ
الْمُؤْمِنِينَ ! وَسَامَتِيْلُ إِلَى أَمْرِكَ فِي الْحَالِ . »

انْصَرَفَ رِحَالُ الْخَلِيفَةِ إِلَى الْبَحْثِ عَنْ أَحْسَنِ سَمِيَّةٍ ، وَأَعَدُّوْهَا لِلسَّفَرِ .
وَعِنْدَمَا طَافَ الرِّيحُ ، انْحَرَتْ حَامِلًا حَوَائِ الْخَلِيفَةِ وَأَنْفُسَ الْهَدَايَا الَّتِي
يَحْدُهَا الْمَرْءُ فِي أَسْوَاقِ بَعْدَادٍ وَالْإِسْكَانْدَرِيَّةِ وَالْقَاهِرَةِ وَمُدُنِ الْمَغْرِبِ .

وَلَدَى وَصُولِي إِلَى سَرَنْدِيبٍ ، اسْتَقْبَلَنِي الْمَلِكُ أَحْسَنَ اسْتِقْبَالٍ ، وَفَرَحَ
بِلِقَائِي أَشَدَّ الْفَرَحِ وَأَعْرَبَ لِي عَنْ عَظِيمِ سَعَادَتِهِ بِحِطَابِ الْخَلِيفَةِ وَهَدَايَاهُ
الَّتِي لَاقَتْ حُسْنَ الْقَبُولِ لَدَيْهِ . وَكُنْتُ مُوَضِعَ رِعَايَتِهِ بِمَا عَمَرَنِي مِنْ قِيَصِ
كَرَمِهِ أَخْلَاقِهِ . وَاسْتَأْذَنَتُهُ لِلسَّفَرِ ، فَحَمَلَنِي الْكَثِيرُ مِنَ الْهَدَايَا ، وَفَعَلَ مِثْلَ
ذَلِكَ رِحَالُ مَعْنَكِيهِ .

القراصنة

بعد ثلاثة أيام من إنحارنا ، خرج علينا مئاة القراصنة في بضعة روارق ، واستولوا على سفينتنا ، واتجهوا بها إلى إحدى الحُرر ، وباعونا إلى تجارها . وكنت من نصيب تاجر طيب أحسن معاملتي .

سألني يوما : « هل تحسن الرماية ؟ » ولما رددت عليه بالإيجاب ، استأنف كلامه قائلا : « حسنا ! فالنظام المتبع في هذا البلد يلزم كل أسير ، بعد بيعه ، بأن يقوم بصيد الأفيال . وعند بيع الأفيال ، يتقاضى القراصنة جزءا من أثمانها . وسأأخذك الليلة إلى الغاية تبدأ غمك هناك . »

صيد الأفيال

في الغاية ، طلب إلي صعود شجرة ، ثم قال : « عليك بالانتظار إلى حين اقتراب الأفيال ، فتطلق بعدها سهمك على أحدها . وسأحيثك عذا صاخا لأعود بك وبائي الفيل إلى المدينة . »

وانتظرت فوق الشجرة طويلا ، إلى أن اقتربت فيل من الشجرة ، وأطلقت عليه سهما فقتله . وفي الصباح جاءني التاجر ، وسر كثيرا عندما رأيته رأى جثة الفيل . وقد عبر عن سروره بقوله : « يسرني أنك من جيرة الرماة ، وقد أحسنت صنعا بقتلك إياه ، فلو لم تقتله ، لقتلك . »

وبعد ظهر ذلك اليوم ، لقيت رجلين أسرهما القراصنة من سفن أخرى . وكان عملهما مثل عملي وهو صيد الأفيال . ودار الحديث بيننا ، ومما

قالا : « إِنَّا لَا نَطْمَعُ فِي أَلْعِيشِ طَوِيلًا ، حَتَّى وَلَوْ بَرَعَ الْوَاحِدُ مِنَّا فِي الصَّيْدِ ،
لَأَنَّ الْأَفْيَالَ لَا يُؤْمَنُ جَانِبُهَا . وَالْمَعْرُوفُ عَنِ الْفِيلِ أَنَّهُ حَيَوَانٌ ذَكِيٌّ ، وَلَا
غَرَابَةَ أَنْ تَنَارَ الْأَفْيَالَ لِقَتْلَاهَا مِنْ قَاتِلِيهَا . »

فَكَرْتُ فِيمَا سَمِعْتُهُ مِنْهُمَا ، وَقُلْتُ لِنَفْسِي : « يَتَّبِعِي إِلَّا أَصْعَدَ إِلَى الشَّجَرَةِ
مَرَّتَيْنِ ؛ كَمَا يَجِبُ أَنْ أَتَحَاشَى إِطْلَاقَ السَّهَامِ عَلَى قَطِيعٍ مِنْهَا ، وَعَلَيَّ إِلَّا
أُخْطِئَ الْهَدَفُ وَأَنْ أَصِيبَ مِنَ الْفِيلِ مَقْتَلًا . »

مَضَى عَلَيَّ زَمَنٌ طَوِيلٌ وَأَنَا أَصْطَادُ فَيْلًا فِي كُلِّ لَيْلَةٍ . وَكَانَ سُرُورُ التَّاجِرِ
كَبِيرًا ، عَبَّرَ عَنْهُ بِقَوْلِهِ : « إِنَّكَ أَفْضَلُ صَيَّادٍ عِنْدِي . وَاعْتِبَارًا مِنْ هَذَا الْيَوْمِ
سَيَكُونُ نَصِيبُكَ نَابًا مِنْ كُلِّ عَشْرَةٍ . وَإِذَا تَجَمَّعَ لَدَيْكَ مِئَةُ نَابٍ ، أَطْلَقْتُ
سَرَاخَكَ لَتَعُودَ إِلَى بَلَدِكَ . »

وَعِنْدَمَا بَلَغَ مَا لَدَيَّ قَرَابَةَ مِئَةِ نَابٍ ، كُنْتُ عَلَى الشَّجَرَةِ وَأَطْلَقْتُ سَهْمًا
عَلَى فِيلٍ ، وَلَكِنِّي لَمْ أَصِبْ مِنْهُ مَقْتَلًا .

وَفِي اللَّيْلَةِ التَّالِيَةِ ، امْتَلَأَتِ الْغَابَةُ بِضَجِيجِ مِئَاتِ الْأَفْيَالَ الَّتِي كَانَتْ تَبْحَثُ
عَنِّي . وَسَرَّعَانَ مَا أَحَاطْتُ بِشَجَرَتِي ، فَصَعِدْتُ إِلَى أَغْلَاهَا . ثُمَّ أَخَذْتُ
تَقْتَرِبُ قَلِيلًا قَلِيلًا ، وَمَعَ هَذَا لَمْ أُحَاوِلْ إِطْلَاقَ سِهَامِي عَلَيْهَا . وَأَخِيرًا لَقْتُ
خِرَاطِيمَهَا حَوْلَ الشَّجَرَةِ وَاقْتَلَعْتُهَا مِنْ جُذُورِهَا ، وَحَمَلَنِي أَكْبَرُهَا عَلَى
ظَهْرِهِ . وَسَارَتْ قَافِلَةُ الْأَفْيَالَ مِنْ وَادٍ إِلَى وَادٍ ، وَبِشَكْلِ عَسْكَرِي بِحَيْثُ كَانَ
الْوَاحِدُ وَرَاءَ الْآخَرِ .

وادي الأفياال

وَفِي وَادٍ يَقَعُ بَيْنَ الْجِبَالِ ، تَوَقَّفَتِ الْأَفْيَالَ عَنْ السَّيْرِ . عِنْدَهَا تَذَكَّرْتُ مَا
قَدْ سَمِعْتُهُ فِي زَمَانِي بِأَنْ جُمُوعَ الْأَفْيَالَ تَذْهَبُ إِلَى مَكَانٍ خَاصٍّ وَتَمُوتُ فِيهِ
بِشَكْلِ جَمَاعِيٍّ . وَكُنْتُ لَا أَصْدُقُ ذَلِكَ ، وَلَكِنْ ، هَا قَدْ تَحَقَّقَ قَوْلُهُمْ .
فَالْمِئَاتُ بِلِ أَلْآلَافٍ مِنَ الْأَفْيَالَ قَدْ مَاتَتْ هُنَا . وَهَاهُنَا ذِي جُثَّتِهَا تُغَطِّي
الْأَرْضَ .

أَحَاطْتُ بِبَيِّ الْأَفْيَالَ وَغُيُوبِهَا جَمِيعًا مُصَوَّبَةً نَحْوِي ، وَلَكِنْ لَمْ يَمَسَّنِي
أَحَدُهَا بِسُوءٍ . وَكَانَتْ غُيُوبُهَا هِيَ الَّتِي تُحَدِّثُنِي ، وَلَوْ كَانَتْ لَهَا الْمَقْدِرَةُ عَلَى
الْكَلَامِ لَقَالَتْ لِي : « لِمَ تُطْلِقُونَ السَّهَامَ عَلَيْنَا مِنْ أَجْلِ أُنْيَابِنَا ؟ أَنْظُرْ حَوْلَكَ . مَاذَا
تَرَى ؟ طَبِيعًا ، تَرَى الْأُنْيَابَ ، وَهَذِهِ الْأُنْيَابُ لَسْنَا بِحَاجَةٍ إِلَيْهَا . هَيَّا خُذْ مِنْهَا
مَا تَشَاءُ وَقُلْ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ أَنْ يَكْفُوا عَنْ قَتْلِنَا . »

وَقَدْ حَاوَلْتُ أَنْ أَجْعَلَهَا تَفْهَمُ أُنِّي مُدْرِكٌ قَصْدَهَا . قَامَتِ الْأَفْيَالَ بَعْدَ ذَلِكَ
بِإِرْشَادِي إِلَى طَرِيقِ الْعُودَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ . وَفِي الْيَوْمِ التَّالِيِ اصْطَطَحَتْ التَّاجِرُ إِلَى
مَقْبَرَةِ الْأَفْيَالَ . وَهُنَاكَ نَظَرَ حَوْلَهُ وَنَظَرَ ، ثُمَّ قَالَ لِي : « فِي هَذِهِ الْمَقْبَرَةِ مِنْ
الْأُنْيَابِ مَا يَشْغُلُ تُجَّارَ الْمَدِينَةِ مِئَةَ سَنَةٍ . وَتَوَقَّفَ سُكَّانُ الْجَزِيرَةِ ،
بَعْدَئِذٍ ، عَنْ صَيْدِ الْأَفْيَالَ . »

وَقَدْ مَلَأُوا لِي سَفِينَةً بِأُنْيَابِ الْأَفْيَالَ كَثِي أَيْعَهَا فِي الْبَصْرَةِ وَبَعْدَادَ ، ثُمَّ
أَنْخَرْتُ إِلَى وَطَنِي ، وَكَانَتْ هِيَ الرُّحْلَةُ الْأَخِيرَةُ مِنْ رِحْلَاتِي .

مُعَامِرَات
السَّيْنِدْبَادِ الْبَحْرِي

المغامرات المثيرة

- ١ - مغامرة في الأدغال
- ٢ - مغامرة في الفضاء
- ٣ - مغامرة أسيرين
- ٤ - مغامرة في الجزيرة الخضراء
- ٥ - مغامرة على الشاطئ
- ٦ - الجاسوس الطائر
- ٧ - لصوم الطريق
- ٨ - حمد الفواص الشجاع
- ٩ - اللصان الغبيان
- ١٠ - مطاردة لصوم السيارات
- ١١ - مغامرات السندباد البحري
- ١٢ - لعبة خطيرة
- ١٣ - الحشرة الذهبية وقصص أخرى
- ١٤ - اللؤلؤة السوداء
- ١٥ - سر الجزيرة



E-1500

مكتبة لبنان

ساحة رياض الصلح - بيروت

رقم مرجع كمبيوتر 01 C 198 211



هذا الموقع هو ملك للجميع ولا يمكن استخدامه لأغراض تجارية أو غير قانونية. جميع الحقوق محفوظة. © 2008 Arab Comics. All rights reserved.